

وردة للوقت المغربي

أحمد المديني

وردة للوقت المغربي

تأليف
أحمد المديني



الناشر مؤسسة هنداوي

المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شبيث ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة

تليفون: ١٧٥٣ ٨٣٢٥٢٢ (٠) ٤٤ +

البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org

الموقع الإلكتروني: <https://www.hindawi.org>

إنَّ مؤسسة هنداوي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبّر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: ولاء الشاهد

الترقيم الدولي: ٩٧٨ ١ ٥٢٧٣ ٣٩٦٦ ٨

صدر هذا الكتاب عام ١٩٨٢.

صدرت هذه النسخة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢٦.

جميع حقوق النشر الخاصة بتصميم هذا الكتاب وتصميم الغلاف محفوظة لمؤسسة هنداوي.

جميع حقوق النشر الخاصة بنص العمل الأصلي محفوظة للسيد الدكتور أحمد المديني.

المحتويات

٧

٥٥

أريد أن أتذكّر – لا أتذكّر
«هو» يروي الحكاية

أريد أن أتذكّر - لا أتذكّر

أنشد الوحدة وأختلط في التعدد، كلف بالريح والشجر المُولول يتراوح بينهما، مشدودًا كنتُ وما أزال إلى هذا البشر - الخلط، من القدمين وبالهدبين وبالأوصال المنخورة من عصف السلالة، ولا يُستثنى في مدى النظرة أو الصرعة شيء؛ إذ إنني أدفع بكل ما خفّ وتثاقل، ما سكن وارتجّ على صولة الجموح، وتهمني الجموع لحظةً أو ساعةً أو دهرًا، وقد تناكحت تناسلت وبدلت شريعة القُبلة والعناق بالطعن والقصف وشرب الأنخاب، مثلًا، في جماجم الأولياء الصالحين أو القتلة السّفلة من حملة الألوية النافخة في الأبواب المهرجة في الأسواق، ثم هذه الجموع ثانيةً أعد لها أكثر من دمار، وغير طقس من طقوس التآليه أو السّيبية، هي وما حرنت أو ارتجّت، عنفها أو استكانتها، تداخلها في جذوع الشجر ودُجنة الغابات الممتدة فينا، وامتشاقها سيوف الصرع عند نواصي الشوارع والأزمان التي تمر منها مواكب القردة والفيلة، ثم ما يلي ذلك من الصراصير والسحليات، زحفًا على البطون وتمرغًا على الأجنة، فتفقق النساء أعينهن ويقرن بطونهن، فتخرج الجرذان والجِراء والعِقبان، ويكون يوم ولا كأَي يوم، فلا يستوي شيء بعد ذلك، وللأرض أن تتململ أو تتبلع بصاق الممالك والحيوانات الخارجة من القرون القديمة، للأرض أن تكون أو تستعيدني إلى رَجَمها، وإنني لأنذر القوم بأنني فاعلُ الأفاعيل.

وجه الخلاف بيني والخلق أجمعين حول الاستواء والتململ؛ فأنا لا أفهم أن الأرض كروية الشكل أو بيضاوية أو صفراء أو زعفرانية، كما لا أفهم أن فيها عددًا من القارات وما لا حصر له من الأجناس والقبائل. وفي ديارنا توجد العشائر وحدها، زد على هذا أن الصحارى والشوارع عندي سواء، وبَشَر الرماح أو الكلاشينكوف هو ذاته ما دامت ريح البلاءة تُصقّر في أدمغة الجميع، وأبواب المكاتب أو العمارات مع شعاب الجبال ومضائق

تنفّس الشعوب تصطفُ، ولا يحدث شيء عدا أن النسور تجيء ميقات كل مجزرة لتقتات من جثث قتلانا. وأنا لا أريد أن أبدأ من اليوم الأول للخليفة كي أستدلّ على أن شرعة الدم ونهر النزيف من هنالك ابتداءً، أو أن كل ما يمتد على مدى البصر والشاريين المغلولة وحبال المشانق الرابطة بين مداخل القارات بديهة، وأكثر منه بدهاء الأشباح الغادية الرائحة صباح مساء، ومنها الطوابير المندفعة في زحام المدن، وخواء أنفسها ورعب طقوسي غير المرئية ولكن الساكنة، الريح والحجر، العشب المتيسس وكسرة الخبز المنتزعة من بين شدقي غول المغرب «الجديد».

لا أفهم أن تتجمهروا في الأرحام وتتظاهروا في الأسرة ولا يصدر عنكم سوى فحيح رغبات جاهزة سلفاً... لا توجد نبوءة واحدة قادرة على اختراق جلدة السكون، أو نار خبيثة تتأمر على أمن بلادكم، وتمسّ بالأمن الداخلي لأسرتكم، وللفحيح الذي يُصدر استمناءات مجهضة في شوارع وساحات تحمل أسماء أعظم عُهار وجزّاري عصرنا العربي.

ولأن أقراص الركود ومُعَلِّبات السأم واللغظ اليومي المعتاد، والحريات المُقننة والشهيق والزفير المحسوبيّن، وأجهزة الرصد والالتقاط لدرجة النبض وإيقاع الذاكرة وسهو الحلم؛ ثابتة آمنة مطمئنة يقينية راصدة ومرصودة، نبض العالم وارتجاج أي هضبة فيه مقيس هنا في شريط دقيق؛ لأن كل شيء على ما يرام، أه! فهو الاستواء، هو الانبطاح، هو القنوت الركوع السجود المبايعة تقبيل الأرض والأعتاب؛ عسى أن تحلّ بكم البركة، وتجاوز فيكم الشفاعة، ولا يُسلّط عليكم رهط أعتى من الرهط الرابض عند شهيقكم. غير أن وجهي لا يتمسّح بهذه الرّكاب. وجهي ورأسي قارة مصعوقة وصاعقة، فيها الشيء وضده وبديله؛ العيون الملتهبة بنار رغبة الحرائق، هذا بعض ما تحتاج إليه المدينة، هذه هي المدينة، المدينة هي الحرائق حين يكون الجميع مطمئناً إلى أن الموسم خصب، والغلال واعدة، والأنعام متربّعة عروش المقاهي، وفي كل مخيخ تدبير لحكم العالم أو إرقاص القردة! عندئذٍ أسطح في سماء الغيم مُشيحاً كل ابتسامة أو قهقهة راضية مرضية، أسطح تركبني الغيوم أركبها، لا أُحلّق بعيداً وإن كنت موقناً أن ليس لي بعدُ قعودٌ في هذي الأرض البوّار، ولكن أندرّع بالعناصر الأربع، ويناوشني يزاحمني الغيم في من سيصقل جبلة جديدة قبل الآخر، ثم أندرّع بكل أعوام الجوع وتواريخ القحط التي مرّت بكم، وعوض أن تشذ فيكم بشريّة جديدة، ارتميتم في أحضان الإذعان، واستكنتم إلى دورة الفصول وطقوس الإنجاب والتشييع الاعتيادية، ثم أندرّع بما يزال ينتفض من أرواح القتلى الذين أضاعوا العمر من أجل الحكام، وكانوا يحسبون أنهم قاتلوا من أجل الأوطان، وإن تهرول خلفي

دوائر العبارات الراقصة والتراتيل المغازلة كي أنضم إلى جوقة التكبير لشأن الكائن الأعظم
الأمجد الأبرع الأبهى الأعلّم الأ... الأ... الأ... تكون خصالي وخصال الغيم قد تمازجت،
وصار بيننا وأنهار النزيف تواصل. نكون قد اقتحمنا بعضنا وسفّهنّا قيم بكارة لم توجد
قط، وإن وُجدت فمن أجل افتضاضات معهرة، وإزمان لوهم مسروق وتهويم مُلَقّق وقبائل
موصولة بحامي السياط وحماة حمى الجوع والبطالة والخرافة. لا بد لي من أن أتمازج
وأنداخل وأقنص النجوم قبل أن تأفل، عاليًا عاليًا، وقريبًا قريبًا حتى لأكاد أصبح كوكبًا
غير مرئي، أو أتحوّل حصّى تحت الماء، أو التواءة في جدبة عيساوة، أو طليقة. تصوّروا
لغمًا ينفجر ويكون حقيقيًا وليس حراقية في أعياد عاشوراء، فأرقصكم، أرقص الشخير،
وتُعلن حالة الطوارئ في المضاجع، ويفزع الناس إلى ذاكرتهم وإلى القواميس والجدّات
وإلى أحشائهم مستفسرين عن معنى الطليقة، ومعنى اللغم، ومعنى الانفجار، وحين يوشك
الشخير أن يداهمهم ثانية، ينفضون إثر طليقة ثانية ولغم آخر، وتشهد الدار البيضاء،
مثلًا، مشهدًا من الركض بين الطليقة والشخير، في حين أتذرّع على صهوة الوهم بالصحو،
ثم أنا والغيم، أوب، نهوي، تهوي السماء معنا، وحين نكاد نطبق على ما حولنا وتحتنا،
دون أن تسبقنا جوقة تفرقع بانتصارات الضجيج، تصعد وتتصاعد الأرواح السرية التي
بثناها، تطلّ تارة من تحت الوسائد، وتارة من تحت اللّهاة، وطورًا من كئوس الشاي أو
القهوة، ثم لتتسلل في خشب الكراسي وأعمدة العمارات الراضية، ولكم أن تتصوروا بعد
ذلك ما يحدث أو ما لا يحدث؛ فقد علمتم التصور ... والحكاية ذات شجون وذات روايات.

رواية أ

في إحدى هذه المدن التي تتشابه، في هذا الوطن الذي يتشابه، وبين سكان كثيرًا ما يتشابهون،
وإن اختلفوا في السّحنات ونسب التكرّش ودرجة الانحناء أمام الشرطة.
في إحدى هذه المدن التي لم يعد يحدها طول ولا عرض، ولا القرب أو البُعد، لا شكل
لها، ولها كل الأشكال؛ ولذلك لم يعد أحد يأبه فيها لأحد أو شيء سوى للحظة معلومة من
دورة الليل والنهار، تُسمّع فيها صفارة إنذار، قد تأتي من المذياع أو الفضاء، أو تخرج
من الألياف أو ثقب المراحض العمومية، كما قد تقفز من حنجرة أحد الفقهاء في خطبة
يوم الجمعة وهو يتهدّد ويتوعّد الشباب، ويُنذّرهم مغبة الكفر والإلحاد والمروق والزواج
من الأجنبية وشرب البيرة واقتناء الكتب والملابس التي «تفوح» بالأفكار «المستوردة»
والأيديولوجيات «الهدّامة»، وقبل أن يصل في وعيده إلى أسفل درك من جهنم، تنطلق

صفارة الإنذار فيهبُ السكان فزعين فَرحين دائخين ملووثين مُهرولين ناحية الصوت. ويذكر بعض ممن لم ينقرضوا، أو كما ظهر من حفريات كُشِفَتْ حديثاً، بأن الجردان والجعران والزنابير وما مشى في الأرض وحلّق في السماء كان يهبُ جهة الصوت، حتى إذا اجتمع الكل، واكتظّت الأرض وما بين الأرض والأرض، وما بينها والسماء، سطع ضوء كالبرق لا ترفُّ له العيون، وهي خاشعة، والقامات محنيّة، يُرى طيف ولا يُرى؛ إذ من يجرؤ على النظر؛ فإذا كاد الطيف يتوارى تحسر كل الرءوس، والوجوه مُعَفّرة بالتراب، فتبصّم بعلامة، وويلٌ لمن ضاعت فيه أو منه العلامة.

وفي إحدى تلك المرات، بين دورة الليل والنهار، وكان السكان في يوم عيد لا يعرفون له مناسبة، ولكنه يوم عيد، ودون اتفاق، كان الجميع قد خرجوا إلى الشوارع، واقتعدوا كراسي المقاهي، وحين امتلأت الكراسي شرعوا في بناء مئات المقاهي والكراسي، وحين امتلأت ونفدت هذه بدورها، حملوا ما في بيوتهم من أسرة وأغطية وستائر وافترشوها، وبينما هم كذلك، تحت ستر العلي القدير، وحماية الشرطة الوطنية، رأوا في الأفق ضباباً أسود كثيفاً، ثم وهو يقترب أخذ يتميزّ، وكانت الأقوال حينئذٍ تتضارب في شأنه، وما ازداد اقتراباً إلا والأدعية والابتهالات تتصاعد إلى السماء، وحبّات المسابح تفرقع بين الأصابع كما تفرقع العظامُ فَرَقاً بين الأجساد، كما تضيق المقاهي والكراسي وتنضم إلى بعضها، كما كان شاهد عيان فوق فنار المدينة، يطلق قهقهات يضجُّ لها البحر، وتطلع إليها الأسماك خارج الماء والموج، كما أخذت الكثافة تنجلي قليلاً قليلاً، ولكن السواد هو هو لم يتغيّر، وإذا هو طابور نمل طويل، ومتكدّس بعضه فوق بعض، وفي المقدمة كانت نملتان تحملان لافتة كبيرة كُتِبَ عليها خطاب طويل، يذكر بعض الذين لم ينقرضوا أنهم ميّزوا منه بعض العبارات:

- نحن معشر النمل لن نستجيب بعد اليوم لصافرة الإنذار.
- نحن معشر النمل نعلن خروجنا من المخابئ والكف عن الاقليات من الفضلات.
- نحن معشر النمل ... (بياض) نعلن ... (ثم بياض آخر) ونعلن احتلال الشوارع والمساجد والمسابح والحانات، وأن قيامتنا قامت ... هذه هي القيامة إن كنتم غافلين!

ثم إن أكداس النمل أخذت تسدُّ مداخل الطرقات، وانتصب في كل مجموعة خطيب، انطلق لسانه بكلام لم يسمع بأحرفه ولا بمعانيه من قَبْلُ سكانُ الشخير. وبقي الأفق يومها منسداً، ملفوفاً بالسواد. وتقول أوثق رواية وصلتنا إن النمل حين لم يَلَقَ استجابةً

ولم يُحسّ صدّي لمظاهرته في ما حوله، شكّل من جديد صفوفاً طويلة راحت تمخر الفراغ، وتمخر الشخير، وتنسلّ بين أقدام الشرطة وأحذيتهم، وسارت في اتجاه لا هو بالعلوم ولا هو بالجهول، كما أن من عاشوا أحداث هذا اليوم مبتدأه ولم يعرفوا منتهاه، سمّوه: يوم النمل.

رواية ب

ستكون مئات الأعوام قد انصرمت على هذا الحديث والناس إما نيام أو بين الصّم والبكم، أو هم يحملقون في شيء ممتد في البعيد ولا يجرون على الإشارة إليه. وسيكون تاريخ مطلق من التنهيد والحسرات قد تراكم وتقلّب على جدّ الأيام بين الجمر وبين الورد، بين أن يظل راقصاً على الأكف مبسوطاً نحو حنين مستديم، أو مشروخاً أبحّ قد تداولته الذكرى، وهو ذا يكاد ينطوي في النسيان، لكن لا يني يقفز فوق النتوءات الجارحة، يتسلّح بأحدها وأقواها انغراساً في جسده ليُدْمى ويعرف مزيداً من النزف، ولكيلا يرى سوى لون واحد، هو لونه، ولون الزمن الوحيد المشروط بهذا الوطن، ولون الأسلحة والمفرقات الكلامية التي فتكت بسكان مدينة هاجر نملها، واحتل الشوارع في يوم النمل، وهم يرقصون، يغنون، يزدردون، يصومون، يُصلّون، ويهونون إقامة مجالس وولائم كاملة للتجشؤ والنميمة. هو ذا تاريخ لا واقف ولا متراجع، مفطوم بالأهون، بحركة الشوارع الدائبة وتموّج الغابة والسهل ثم انقضاض الشك على اليقين حتى لا يرى شيء ثابت مستقر، لأنّ دفين القوم في الوهم — وهمي المترقّق، المتفجّر كالينابيع في صحراء من الأكاذيب والحقائق الخزفية — إنه وهمي ممسكاً به وفي جاذبيته كنا ذات يوم قد أشعلنا حرائق من بعض العيون التي توهّج فيها الإبصار — ثم إنه هذا التاريخ الجمر الشرخ التمزيق التدمير جبالاً أطلسية لالتماس الشوق وإطلاق عنان الركض عوض أن يظل الأطلس منبطحاً ومتسلّقاً على كفي مراعي للماعز ومبغى «لعمّالنا في الخارج» — أريد أن أنقش على جدران هذه المدن الرخوة بعض خصال هذا التاريخ ومنها، مثلاً، أن الزمن هو العصيان، وأن العصيان هو الشريعة الوحيدة تُحلّق فوق الرءوس، وتشتعل كالحمم كلّما تداعى القوم إلى الغفلة واضطجعوا في توابيت الشخير... إنني أعلن العصيان، وأُخرج من تجاويف صدري العناصر الأربعة علاماتي. يتقدّمني جفلاً أعياني مسير الوهم أن أخلقه أو أن يُخلّق، فما اتفق بعد للشيء الخارق أن يُزاوج في إسرائه بين أن يظماً أو يفنى في ظمئه أو يتبدّد تحت لظى شمس محرقة، ويتحدث لغة الصهد إذا ما تصاعد الكلام

من حنجرته أو دمه، ويتأله في النار النار راية التلاميذ يصطفون أولاً عشباً، وثانياً سنابل خضراء وصفراء، ومثل النجوم يتألقون. هؤلاء التلاميذ أسمعهم الآن يرفضون العنجهية والتسبيح، ويمزقون صكوك علم العبودية، ويغتسلون من أدرانته في جهنمي الخضراء؛ لعلي نجحت في أول الدعوة، لعلي هَوَيْت حتى قبل أن أصنع الخطوة، ولكني موقن من أن الجثث المَحْنَطَة التي تعلو المنابر وهي مُحْنَطَة، راحت تتفسخ الآن مع هبوب ريح عصياني، وإنني إذ أراها تتفسخ، أسمع في الوقت ذاته رجّة بين قدمي، فأحس بالأرض تتململ، وكنت أجدس أن ما في رحم هذا الوطن هو تاريخ يتململ، لكني أنا الذي رأيت ... ثم لم أر ... ثم قلت: رأيت أيها العالم الذي سيَجُنُّ يوماً بصراخي المُقْمَط في الغيم والشجر، فتبدأ رحلتي ثانية — ما زلت أذكر، أو لعل التذكّر يحتمي بي ليسوق روايته على لساني ... تأملوا، الكلمات تخاف، تُكْتَب وتُنطَق خائفة في زماننا ... ليكن ... هذه شهادة لزمان سيأتي لا محالة، حين يُكْتَشَف أن الذعر التشكُّك من أعضائنا كان ارتعادنا اليومي — ما بال هذه الرواية لا تأتي، كيف تُعزَل المقابر خارج المدن أو حيث تَبَيَس القُرى أو تتلاشى طلاقات البارود في المواسم التي لا تنتهي لـ «مولاي عبد الله أمغار» و«مولاي بوشعيب عطاى لعزارة والعزريات» والمقابر عربات جمهرة توابيت جماهير ملصقة إعلانات على أعمدة ثمانية أو بطول العالم «الثالث»، والدفع بالتقسيط أو الآجال، ولا بأس أن يكون صورة في المانشيت لأبكار يرقصن، وهنّ لا يعلمن، لبابا عيشور، فيتخذ الرقص إزجاءً وابتهاجاً وفرحاً بالفرح الأكبر والسَّعد الذي لا سعد بعده — اللهم اجعل اللهم اجعل اللهم — لماذا تُسَوِّرُ المدن بالمقابر، والمقابر بالقرى والمداشر؟! ليس تاريخي المطلق ما يفعل هذا، ولا يأس واهن شاحب في الوجوه، تلك الوجوه المقبورة تتذكّر والمحاة تسكنني كما تقضقض ما تبالي من عظامي، ما تبقى من الاستئناس بتباشير غِدِّ أُلْفَقه على وهم الارتعاش الارتعاد التأمل الأبكم تارة، الصارخ في كل الأوقات وأنا الصرخة: متى تأتي الرواية؟

... اهتزت الكراسي، احتاج الحلم، انتفضت الأشجار وزفرت البراكين ما تبقى فيها من حمم، خرجت الكوابيس والحكايات القديمة من الناس، وراحت تبحث عن مأوى جديد مُلْفَع بالقلق ... في ذلك اليوم من الأيام، وفي تلك المدينة التي استعصت على التسمية، وتداخلت في تجاويف التضاريس والخرائط، فهي تبين ولا تبين، وإن كانت تشهد، وقتها هذا، حركة الأشياء والغياب المطلق للكائنات التي لا تعلم إن كانت موجودة أو عديمة، حية أو فانية، وما يحدد وجودها هو تلك الأشياء التي تقوم حولها طوابق بنايات صحونا شاحنات قنينات للسُّكر وسباق الدوخة، الكراسي دائماً والطاولات، الثياب والمصابيح، في

ذلك اليوم من الأيام ألقت الكراسي والسرر والسيارات بمن فيها، تململت الأبنية وتحشّرت الإسفلت، وكان زمن طويل قد استنّام للضغط والوطء. سمع البحر بحركة الشوارع فدفع بالأمواج صاخبةً إلى حدود الأرصفة ترقص متشنجة، الغابات البعيدة تشابكت أشجارها، وألقت بأغصانها ظللاً وارفة فيما تبادلت أحياء الصفيح وعلامات المرور بعض الإشارات والحواجز ... ما يسكن الجسد الآن هو النسيان والتذكر، عبور القوافل المحمّلة بالخبل وهي تسعى وراء ظمأ هارب، وتلوي أعناقها وجيادها ونسلها بالصحاري وإدمان القحط والتذكر، فيهيج صدري، هكذا أمسك قلبي بين كفي فلا ينزف دم؛ إذ الدم جف في عروق أرضي المستباحة. هو قفص أسلاك صدئة مغارة احتباسي، دمار متراكض هو جسدي يغوص في الطين وينتظر أن ينمو شجرة خرافية ... وكما حدث مع النمل تجمعت تلك الأشياء كلها، وطفقت تتطلع في بعضها، ثم تنبش في داخلها وكأنها ستُنقذ وصية قديمة، هل هي وصية الأرض، تريد أن تتجدّد بما حملت، أم وصيتي أنا بعد أن تكلّست في حكمة الأجداد المهترئة وتكلح وجهي وصدري بتعاويذهم خرافات، هرطقات، ترهات هي حتى مطلع الفجر؟! اهتزت الكراسي، تدرجت البنايات، تشققت الأصص، ثم صارت كلها تجمعاً، موكباً واحداً، وتسمع زغاريد مطاردة، ولكنها كانت تُصوّت ملء الفضاء، تسري في الهواء أنفاس لأشباح اختلطت فيه، وسط زحام حاشد أمسكت الأعمدة الكهربائية والسلالم والعصي التي انفلتت من أحزمة الشرطة، أمسكت بالأجهزة اللاسلكية لتبادل الأوامر والطاعة والنهي والتذرّع والخضوع والانبطاح، وطوّحت بها تحت أسنان جرافات ضخمة انضمت إلى الحفل، واستبدلتها سريعاً بأكف وجماجم وقلوب بشرية انتزعته من المجاري والمخابئ السرية، وشرعت تقرأ فيها طالع العهد الآتي. ضج الفضاء بصوت هادر: - نحن الأشياء نعلن انسلاخنا عن جلدة الخنوع، وخروجنا عن طاعة الناس وشخير الناس، ثم والموكب ينتزع نفسه من الأذرع المتعلقة به والمستغيثة، العاشقة المتعبدة، نعلن الخروج في انتظار قدوم الدخول الأكبر.

رواية فناء الأبجدية

هو ذا بشر لا كالبشر يخرج من تحت جلدي بعد أن أعياه استغراقي اللانهائي في الشخير، ومراوحتي بين الكرسي والسرير، والإطلال مرةً مرةً من النافذة أو الكوة أو الثقب الأخير في المغارة باتجاه شيء بعيد مشوق ومدمر، يخرج هذا البشر فأروح أتفقد فيه سحنتي وكل ما حفره الزمن الحقير على بشرتي وتقاطيع وجهي التكعيبية، فيذّهلني إذ أراه الصخر

والماء، الطين والهواء شامخًا مثل جبل يفيض في النفس أَسَى ويقمطها رهبة. طريًّا مثل
الأماسي الحزينة، من عينيه ينسكب دمع هو بكاء أو قهر أو مطر أو دفع دم ما زال يلتوي
في الطرقات وجذوع الشواهد يلهج باسم صاحبه فلا يجده، وحين يهجع الخلق والطيور
والحجر يَصْخَر من عمق الليل:

دمك الآن معراج
قناديل في الطرق الكابية
تحليق في سماء رصاصية
والأرض تحت لطح جنود مطاردة.

الجنود أراهم أداروا الظهر للوطن، وسَدَّدوا بنادقهم صوب البرق؛ إذ يخطف البصر،
يمرق البرق برقًا، ويتوجه مضيئًا الطريق أمامي وأنا أصرخ:
تعالَ إليَّ أنا دمك؛ فقد سقطت كل الأسماء.

هو ذا بشر، من رحم العظام والأوصال والشرابين المهترئة يخرج فتَهْبُ نحوه مظاهرة
من المسام والقنوات ولحاء الشجر، تهبُّ هاتفةً:

– هل أنت السلالة الموعودة؟ هل أنت الوعد؟ هل أنت العهد الآتي؟

– كن كل شيء، أي شيء، لكن لا تكن مثلنا، ماذا نحن، من نحن، من؟

(ويُسَمَع نهيق وثغاء ونباح، يُسَمَع مواء، ثم حشرات وأنفاس تُكْتَم وتختنق، صوت
يكاد يعلو على هذه الأصوات جميعًا، ويختنق قبل أن يصل إلى الشفتين، يعلو النهيق ثانية؛
وإذ تكون تلك القلة التي ما زالت ساكنة في حضرة عشق الصوت القديم، فإنهم يجزؤونها
ويسلخون جلدها، ويرشُّونه بالنهيق كي يتآلف ويصبح من الحامدين الشاكرين القانتين
الساجدين هل تهوي حضرة العشق سريعًا، هل تنسحب وجوه الشوق سريعًا من مدى
الآفاق، كيف يسود النهيق ونظل هنا مكتومي الأنفاس، ودُبرنا مشدودة إلى أرضفة المدن
المتشابهة، لم يَبْق سوى أن تُجَنَّ خلاياي بعد أن انفجرت ذاكرتي من قديم ذات صرع
جماعي، ذات صاعقة امتد فيها النطع إلى الرقاب، ويومها جُنَّ اسمي وراح يبحث عن دمه
الذي فاض، فلا امتصه المطر، ولا احتواه النهر ولا ابتلعه النهيق، الثغاء، النباح، تُسَمَع
حشرة، يُكْتَم نفس، صوت يهبط، صوت يعلو صو ...).

يخرج من تحت الجلد وصدأ القضبان، من سهيل الخيل وحَبَّات البارود، من حطام
أجيال متهاولية، يندفع شمالًا وشمالًا، قبل أن ينبش الحيطان ليستخرج الجثث الثاوية

خلفها تتفنّنت ويتذرّر الإسمنت حول قدميه، صراخ واحد، هائج ودام، فتنبعث كل الصرخات التي اختنقت بين الحبال أو ولاءات التطويق، تركض القبور خارج المدن المتشابهة أو داخلها، ليست لديه ثارات ولو أن كل ثلم وشظية في الجسد الأرضي، جسده هو جمجمة مدفونة قبل أوان الدفن ... هو الوقت المغربي، طاف بالمداشر والأسواق، وتلفّع بقمم الأطلس والريف تعشق الوله الصوفي، في زوايا بلاد «السّيبية والحركة» تسوّل البركة في الأضرحة وزوايا «أوليائهم الصالحين»، غشى المغارات، وحدها، هي والأقبية المنصوبة كالشرك في كل ممر من الوطن، وهبته رداء هو كل ما لديها: أن يظهر في وضح النهار عتمة تنشر الرعب في الأرض، وفي الليل غيمة أشد سوادًا من الليل نفسه، فيتهدّد بالطوفان والفناء القريب ... اسمه الدهشة، ونعته الذهول، من علاماته أنه عاشق ومعشوق، وبين حدّي العشق هذين تنتشر أحلامه مسافات، كل مسافة هي دهشة ثم فرح مجنون يدمر، يدمر، لا يتراجع خطوة، ولكن بعد الخطوة يقطعها تنبت شجرة، تُسبل عينان، يشرق ضوء، يهوي وعد، تينع وردة، وردة الوقت المغربي، ويكون قد لثم العشب وأودع سرّه السنابل، وقبل أن يغادر تمامًا ليواصل الطواف، جاء إلينا وكنا شعوبًا وقبائل متفرقة ونزداد تفرقًا، وكنا أحقر أمة أُخرجت للناس ... جاء وحاول أن يستنفرنا فلم نُطق النهوض، صرخ صرخة مدوية اهتزّت لها الجنّيات فلم نزد عن أن تقرّمنّا، ورحنا نُطل عليه من تحت الأغطية، رفسنا، تبوّل تبرّز فوقنا فلم نجد بأسًا في ذلك، اختار أجمل فتياتنا وأبكارنا ففسق فيهن وألقاهن جيفةً، فقلنا لا بأس عليك، الملك لك وحدك، الشكر لك وحدك، الأرض وما فيها لك وحدك، لك وحدك، والآن حيّ على الشخير.

قطع مائة خطوة، مائة كلمتر، مائة قرن والتفت إلينا بوجهه سريعًا، لم نقدر على النظر إليه، حدّق طويلًا وبصق: اتفو على تاريخ طويل وعقيم لا ينبج سوى سلالة القحط.

قبل أن يرتدّ إليه طرفه، سار ليلاً وصار غيمةً مثقلة بالكمد، وللحظة انتبه، نفر منا فتبعنا الغيمة نتوسل بركاتها، والليل أن يستر عاهاتنا، ثم اجتمعنا في الأسواق والمناسبات الدينية والوطنية، ورفعنا أكفّ الضراعة إلى العلي القدير أن يُديم علينا نِعَم القحط والعقم والليل الطويل، وأن يحفظنا من كل غيمة مثقلة، وبشر ذاهل عن الحمد والشكر والشكر والشكر للجراد والضفادع والصراصير.

• إما أن تعلن قيامتنا، الآن، أو يعلن عن تفسُّخ الشوارع.

• إما أن تهطل الغيمة المثقلة أو يزرع الخراب في المدن المتشابهة، آه ليأت زمن الخراب البهيج!

لم تَنْتَهِ الروايات ولن تنتهي إلى أن يتوقف هذا الزمن الكسيح، ولكن رواية فناء الأبجدية هي الأكثر مصداقية واعتمادًا عند من تناهت إليهم ممن لم ينقرضوا من الجنس الأصيل، وإن كان هؤلاء، على ندرتهم، لا يميلون إلى تصديق شيء، ولا يوقنون سوى بأن الحقيقة المطلقة التي يمكن القبض عليها، والمطلقة لأنها الوحيدة المتبقية بعد أن تم وضع قوانين وإرساء مصانع لصنع وتكرير الحقائق وفق المرغوب وحسب قانون العرض والطلب؛ الحقيقة المتبقية هي طوفان التفسُّخ، هم لا يذكرون السنة أو في أي تقويم بدأ هذا، ولكنهم واثقون من أن تداخل الأزمنة واختلاط الوجوه وتلاشي الأسماء كان قرين سيادة هذه الحقيقة، أول عهد لهم، إن لم تكن الذاكرة قد خانتهم، أن متاجر فُتحت لبيع الألقاب بأسعار عالية بدءًا، ثم سريعًا بأرخص الأثمان، ثم زاحمتها متاجر أكثر رونقًا وأبهى تزيينًا، واختصت هاته في تبديل الأعضاء، خارجيها وداخليها، فأنت تستطيع أن تستبدل ذراعك كما تستبدل لسانًا بلسان أو صوتًا بصوت، وفُتحت عيادات لا عهد للناس بها، وضعت عند مدخلها لوحات كتب عليها: اختصاصيون في الاستبدال من خرداوات وألسنة وصحون وعواطف، وهَلُمَّ جَرًّا. وقد ازدهرت هذه التجارة ازدهارًا عظيمًا، حتى إن الدولة عهدتْ عمدت إلى تأميمها، وهي التي كانت دائمًا تعتبر التأمين ضربًا من المروق والإلحاد.

ماذا تبقى لكم؟ انظروا إلى المرأة في وجوهكم، وإلى أرجلكم، كيف لم تُعَدْ تَلَامِس الأرض الهاربة منكم، وكيف أنكم تترنحون في الهواء ... الكراسي، الشرر، الشيطان، المباني تهرب، النمل والذباب يهرب، عصي الشرطة هي الأخرى تهرب، ولا تكف تفرقع فوق رؤوسكم، وأنا انفلتُ من قاذوراتكم ... أنا الامتداد الذي يستوي بالأرض منبسطةً، ثم يشمخ جبلاً، ويظل يشمخ كي يفلت من عطن المستنقعات، لا أهرب منكم أو مما تعيشون؛ فأنا أتنفسكم، أشرح بسنوات العمر الضائع بينكم، ثم أجدل لي سنوات جديدة، حتى وإن غاصت في المارّة والقنوط؛ فهي تعرف كيف تشحذ الوثبات، وتصلق الصدأ العالق بالبشرة الكالحة، ثم تمضي قريبًا من مصب النهر وئيدًا عند منعطف الجبال ومدخل البحر هائجًا يكتسح ويجرف الجثث، لا بد يغمر البحر هذه الأرض.

ليس يأسًا ولا إمعانًا في تدمير الذات والآخرين بالقصد المبيّت، ولكنها دورة الفصول التي انطوت كانت مجدبة، أجل نزع الدم واهترأ اللحم وتصدعت كثير من الأبنية، ولكن الرقصة الجنونية للخراب التي تحب لم تنطلق بعد، وثمة يكمن سرُّ القيامة. ورغم ذلك فمن الصعب تمامًا إصلاح الأشياء ببساطة أو تساهل؛ فليس ما بيننا حزازات أو أحقادًا صغيرة تجلوها الأيام سريعًا، ولا اختلافًا هينًا حول القبح أو البشاعة منسوب إلى ذوقي أو أدواقكم، ولربما توهمتم أن الأمر رهين بديمومتي وفنائكم، وأؤكد هنا أن فناءكم حتم، ولا بد أن تتستقيم للأرض دورتها الصحيحة. والزمن وحده ليس كافيًا بجمعنا، ولو أن ما بيننا ملايين من السنين واختلاف في تقدير دورة الفصول والليل والنهار، وكيفية ردع الأمة وإطلاق عنانها. ها أنتم، إذن، ترون أن البون بيننا شاسع، والمدي جمرات، وبكل هذا فالسوء القائم بيننا عميق الغور، وأنا موقن أننا لن نلتقي ... هو طلاق.

ما زال الخلاف بيننا حادًا وحاميًا ... الأرض وحدها بيننا. إنكم تصرون على أن الأرض مستوية، الشوارع والوجوه والهضاب والثكنات والمقابر والأرحام مستوية، لا تستطيعون التحديق في شيء إلا إذا كان مستويًا، وهكذا فأنتم تخافون الانتفاخ والمكعبات، مثلاً، ويقشعر جلدكم حين تصطدمون بنتوء أو ارتفاع، والكلمات، القصائد، القصص التي تُقدّم لكم الحياة ملهاة ملفقة هي هواكم، تخشون كل التواء كما تخشون الكلمات التي تذبح نفسها قبل أن تسيل على الورق ... الكلمات لا بد من نفخها كي يصير كل ما يشاهد بالونًا ضخماً وفخماً وملء خواء وحذقة، أفّ لكل ما يعبئ الفكر، يشحن الروح إن كنتم تفهمون الروح خارج ما سطرته الكتب والداستير المنزلة!

الخلاف بيننا حاد، ولن ينتهي بطبع هذا الكتاب أو غيره؛ إذ المسألة لا تُحد بنشر كلمات. أنا أعلم جيداً أنني لا أحفر حواجز، لا أقيمها الآن في وجوهكم، كما أعلم أنني لا أثير الصواعق ... أفّ! الخلاف ليس الكتابة وحدها ولا زاوية النظرة، ولا كل الحذقات الفهمية، ولا «الجماهير» نفسها التي تستعمل كأجود صابون وأجود شفرة حلاقة. أنا أريد واحداً ... واحداً فقط يخرج إليّ ويجابهنني ولا ينطق باسم «الشعب»، لا يعهر هذا الاسم وله «الحرية» إن استطاع إليها سبيلاً، أو إن استطاع أن يجنّ بالاستشهاد.

أمهلوني لحظة، ساعة، دهرًا ... ستجدون البلاد على حالها، ولكن لحظتي لا تمهل ما بعدها، وتحمل، تحلم بالوعد المستحيل. سيات أن نلتقي أو نرتقي حبل المشانق ... هم يعرفون هويتي، حتى وإن أجّلوا الموعد المهموس في سريرتي، والصدى المحبوس بين الميلاد

والطلقة المصوّبة إليه. إنكم تفترون المجد والسهد، ونُعنى بالمحال أيها السادة. وهذا بعض الخلاف أيها السادة.

ثم أمهلوني، لا بد أن أحدثه، اللحظة، ليس سيافاً ولا جابي خراج أو أرواح، إنه هو، ف «تحسّس رأسك، تحسّس رأسك».

رواية أحمد المديني (وهو غير المؤلف)

ما كنت أريد، بتاتاً، العودة إلى هذه الأشياء ... الأشياء ... أو أقفز خارج جلدي المتكح بالصمت المكثف، والغيض المتكبد، ولا كنت أرغب، كما لم أرغب يوماً في وصف الأشياء ... هي جارحة قاتلة، عدا أنها مدوخة، وعمر متداوم على الوجدان والذاكرة. وحين أكاد أعلن خارج لساني أن سيتاح لنا أن نحكم، ولو ذات عصيان، ذات سهر أو نسيان، يزداد تكدّس الأشياء المريب، وتدافعها ليفقأ العين ويلوي عنق التذكر الحي، وعلينا عندئذ أن نيمّ شطر الهمهمات الكاذبة.

أنا لست أعلم، بالتحديد، لماذا ينبجس هذا الكلام الآن مثل نبع تفجر في ظمأ، ولكنه شيء يضغط على النفس كما تضغط عليها الاستكانة المميّة، أو الخروج الأكبر، وأنت تقطع المسافات، وكأنك تبحث عن شيء لم يُكتشف بعد في كل القارات الموجودة.

أستجمع المغرب، الآن، بين يدي

فيعوي صفير الريح

ومن جماع قبضتي تتناسل الجماجم

فلا وطني يحضنني

ولا الموت يأوي إليّ

يطيب لي أيها السادة أن نتبادل — بعد ما مرّ من «تبجيلي» لكم — كلمات، ونمارس بعض العادات الجهرية، ونستعمل مفردات لم تُلوّثها الصحف والبلاغات. لكم كان يطيب لي أن أفعل، ولكن لافتات وتحذيرات غير مرئية تحملق فينا جاحظة، متوعدة ... حذار؛ فما إن نقترّب من فضاء الضوء لتنفلت من دائرة الشنق حتى يسرعوا في المرور أمامنا ليتخذوا سحنات حربائية ... إنه الصرع، حقاً، هذا الشيء المرئي واللامرئي، تداخل النظرة والحركة، وتقاطع الوهم بالحقيقة.

أريد أن أتذكّر - لا أتذكّر

« ليخرج محترفو الثورة والخزعات القذائفية من مكمّنتهم؛ فأنا لهم، هنا، بالمرصاد ... سيجدونني قد شحذت لهم بعض أسلحتي الصّديّة، وسيلقون عندي أسلحة أعتى من أسلحة التخريب الحقيقية.»

هكذا حدّثني صوته ... صوت نابع من هوة في الأسفل، موجهة نحو الأعلى الذي اشتغل سمساراً على الأرواح، ولم يتمكن الصوت من الاستمرار؛ إذ سمعت صداه عوّض أن ينتشر يتهاوى سريعاً إلى القاع؛ حيث أرادوا له أن يكون. فهل هذه البلاد مازوخية؛ تتعذّب بالاكْتئاب حتى يأتيها الخصب والنشور؟ وإذ لا أطيق صبراً على انتظار الجواب الأعمى والأهزوجة الراحلة، أكاد أسمع صوتاً هو مثل الريح، ودان من الهمس، وممتطٍ صهوة العاصفة، فأكاد أصرخ: هو بعينه لا محالة، وها نحن نُطل بأحلامنا على البحار المسكونة بالابتلاع.

نحن نحاول، الليلة ... نحاول فقط تبادل الحديث. أما الأسرار فقد باعوها لأسيادهم في شيفرة قاموس ملفق ... أنا وأنت نستطيع أن ننشئ وندمر، ولو في الوهم وبالوهم، ونكس اليوم على اليوم، ومن كوة اليأس نُطل على الأمل الفسيح؛ لأننا نرفض بيع المكابدة، ولأننا ما زلنا نعرف للقبلة طعمًا، وننظر بغضب إلى المبايعة.

تستطيع أن تخاطبني بكلمات أحببتها ذات يوم فتقول لي مثلاً:

«أين الوردية في أنفاس الجموع
آلاف الطيور مضرجة
والفضاء غياب ...»

فأجيبك، وفي صديد القلب توحدت السهول، المدن الهاربة التي نحب، وليس سوى المسير إليها ما يثير الشجن، أجيبك:

«مفتحة زهرة الأقحوان
فيما الطريق إلى القيامة ألغام
ها هنا القيامة
اعبر معي نحو تلك الرءوس نشجّها
نكمل الطريق فينتفض الفضاء.»

كل شيء كامن في الخلل، واستماتة الخلل في الاختباء، ونحن لن نلتقي؛ إذ أستبعد مطلقاً أن تتجه عيوننا نحو المكنن الواحد، أو تنضبط الخطوات في مسار متماثل.

وقبل أن يلتقطني، ثانيةً، الشاغلُ الذي يضغط جبيني على الأرض، يصدمني بالأسفلت، ويحللني في خلايا الجبال، وقبل أن أنكفي إلى ذاتي المضمومة على ذاتها لنمارس جنوننا الصامت، عليّ قبلئذٍ وعلينا أن نعترف بأن لقاءنا صدفة مخرمة، وأنا لا نلتقي إلا في القاموس اليومي-الدهري المستهلك للمشروبات الغازية، أو في تبادل تحيات مفرقة ومشاعر هشة تذروها أول كلمة صدئ، وأنا لا نفهم الحب، مثلاً، لغةً واحدةً؛ فأنا أكره الملعبات، وهذا الوقت، وقتكم، مُعلَّب، وبلا أجنحة، راكد وبدون سماء، فيما تتجدد سماواتي، وتتكاثر رؤاي التي أرادوا احتجازها تحت شمس شاحبة ... وتبقى الرؤية الأكثر إيغالاً في دمي وشرايين الغيم بعد أن تلهج أني عاصف وهي قد اشتد بها الإبصار في بلد العميان. ثم تفاؤل، ملل، كعادتك دائماً؛ لأن الصور الكرتونية لا بد أن تتحرك في عُرفكم؛ ما يُخدر الأجفان ويحتجز الخيال، أو ما يجعلكم في طنين وصرصر دائمة، وأنا لا شيء عندي من هذا. أنا أعلم أنكم تنتظرون الرواية، أية رواية؟! آه، تلك الأحداث المُلَفَّقة ووراءها الأنفاس متعاقبة، وتلك الشخصيات بأفكارها وهمومها المغموسة رغماً من الحياة، آه، العبر، الحكيم، الشقاء، السعادة، أية رواية، الذات الإنسانية المنفخة في سطور، وطوفان من التفاصيل والرتوش بزعم الواقعية، أية واقعية؟ أي واقع، أي موت، أية حياة، كيف نضع اليد على ما لا يُوصَف، على النبوءة البكر، والصحو المطلق، ثم ذلك الحب الرهيب يشحب على الدوام، لكن كيف يبدأ، كيف ينتهي هذا العالم الجريح، ويرقد على آخر هاجس قبل اختلاج الأرض بالطوفان؟! ثم كيف؟ ستظل الرواية منتظرة. أو لعلني أنا الراوي والرواية. ليكون كلُّ منا نهرًا، ويدفع بنفسه في شقوق الأرض وجذوع الشجر كصهيل، وحين ينتفض فلكي تبرق في خلاياه مواعيد الثَّار، وتتحوّل الهمهمات إلى لغة العالم؛ ليس الأول أو الثالث أو السبعون، العالم. وأنتم شهود فيه، سفاكون وضحايا في آنٍ، يصبح التملل دينكم ودينكم، فنخرج عن طاعة الغثيان، ونركض فوق الاستواء، وتمتد المدن ... آه، تمتد المدن عاريةً فوق جروحها الدهرية. انبثقت أعلام لنا، وهو ضمنها علم، وأكون قادرًا، وقتها، أو أن أقول لك استرح، اهجع الآن، وكُفَّ عن التطواف، واستجمع نفسك من نثار المسافات لتكون أنت، مطلقك في جمعك ومفردك، ولتكن أنت وليس سوى أنت.

ستدوخي المسافة حتمًا قبل أن أعرف بداية الخطو إليك، سأنزف وأعتصر دمي وكبحي وبحبوحة الأحلام الأولى التي سيقطفونها ليُزيّنوا بها لافتاتهم في المناسبات الوطنية والحزبية والهرطقية ... أوف، أوف! ولكن لا شيء يقطع سعي الشوق إليك، أو يبعد القلب عن هوى الشاوية، فهي برّ وحرب، وهي سرٌّ وسرب، ثم هي سقيا وعطش ... عطش حارق،

وإنني لن أرتوي أبداً؛ فقد علّمني هو أن ديمومتي في عطشي، وأن الارتواء نظير الاستواء، وأن سلاتنا لن تكفّ عن سفّ التراب وممارسة الجنون في المواسم والأصراحة، وفتل حبال الوهم ما دامت مشدودة إلى مولاها «عبد القادر الجيلاني» و«عبد الله أمغار» و«عطاي لعزارة» و«مولاي» ... «مولاي» أيتها الدهماء مولاتي، أيها العفن، أيتها الثيران والمجاعة، أيتها الشاوية سنمشي سوياً ونعبر طبقات الجنة والنار، وجميع فروض الخدر والدجل، لتلحق بشيء وبك، ونجتازه فنندمر، ولن نصل إلى مكان محدد، كما أنه ليس لنا اتجاه محدد. وليست عندنا وجبات قُبَل، ولن ننصب خيام تنويم، والواقع ما هو بالضبط؟ ومن كان منكم يرغب في اليوم الآخر فليترك هذا الكتاب.

...

أريد أن أحكي وألا أحكي ... أن أكتب وألا أكتب، ثم أبحث عن نفسي بين ما لا يُحكى، والمسافة التي لم تُكتب، هي ليست بياضاً، كما أن البشر المندفع في شوارع العالم ليس زبداً أو بخاراً. وحين تستبدّ بي الحكاية، وأحس بها تتنمّل في أعضائي، أبدأ المنولوج الخارجي بصوت بهموس حيناً، والمنولوج الداخلي بصوت صاحب حيناً آخر، فلا أعبأ، حينئذٍ، بالإشارات الموجهة إليّ أو تُهم الحمق التي تبدأ في التناسل فوق ثيابي. يكون هدي أن أتخلص، وبأقصى سرعة، من هذا الشيء المدعو حكاية وخبراً وشوقاً وعاطفة ومأساة وصرعاً، وكافة ضروب الكبت والانهيئات العصبية والوجدانية التي يكتب عنها الإخوان العرب من المحيط إلى الخليج؛ فأنا أعلم كما أنه يعلم القصة، وهي أصلاً ليست للتصريف أو التوزيع أو استخلاص العبر، وأن العبرة الوحيدة التي يمكن انتزاعها من هذا العالم هي انتحار شجاع لمن استطاع إليه سبيلاً. وإذن، فمن باب الهُزء بالآخرين أن نستمر في تجميد ذاكرتهم بشطحات أخيلتنا المريضة ... لقد عودنا الناس على عقم الخيال وتحريم سفر الذاكرة، وأن العذاب الوحيد هو الذي يحس به صرعى الغواني والمراهقات ... هو كان خيالاً وإن مشي كالريح وتصلّد كالصخر والجبل ... هو سفر مستديم، حالٌ بكل مكان، حتى ليكاد ينشقُّ من بين أضلعي الآن، فأدعه يخترق لحمي وعظامي الهشة، ولخوفي عليكم من الرعب الساكن فيكم، أدفعه لوقت مؤجّل ومعلوم.

هو وأنا تواعدنا على اللقاء ذات يوم حين تنقطع غواية الأخبار ويصبح شاغل الناس دواخلهم وتربتهم؛ لأنه هو عكف على داخله، اعتكف فيه زمناً طويلاً، حتى ليذكر بعض نقلة سيرته من مريديه أنه مكث أزيد من الحول في بطن أمه، وأنه أخرج إلى هذا الكل المدعو «العالم» أو «الدنيا» قسراً، وأنه أشهد الجميع على هذا الجور الذي لا يعدله جور،

وأضافوا اشتراطه الخروج على الملة المتبعة والقوانين الموضوعة ورغبته في أن يصنع ويفعل شيئاً لم يُسمَّه.

في ذلك الوقت، وهو غير الوقت الذي نعرف، احتار أهله أيُّ اسم يطلقون عليه، وأيُّ بيت يُنويه وإن كان له أهل فنطق: سَمُونِي الشاوية. وبعد أن جفل القوم وبسملوا، قالوا: ولكن الشاوية أرض وإقليم، أجب للتو: أنا أرض وكل الأقاليم، ثم إنني سأرويكم وسأرتوي، أنا الأرض. ثم إنه ظل لسنين طوال يظهر ويختفي ثم يظهر حتى إنه ما عاد أحد يعرف ميقاته إلى أن التقيت به فارتجبت وتحشرجت بكاءً وفرحاً، ووعده بالكتمان ورهبة كاوية تتأكلني. حين اقتربت منه نشقت رائحة التراب وبلل الفجر الندي. حين نطق كان لكلامه صوت تسمعه قطراً كما يأتيك صهيلاً، قلت: هو أنت. قال: هو أنت. قال: سأخفي من جديد، ولكن قبل ذلك — وأشار إلى الامتداد حولنا وقَدَّامنا — اكتم السر، ثم احفظ اسمي جيداً: سيدي جلول ولد خير، ولد خير، ولد خير.

إن المسافة بين أن أحكي وألا أحكي، وبين أن أكتب وألا أكتب، هي أن أكون وأتكوّن، هي الوجود المفقود الذي ينبغي أن يتأسس، بدءاً من النطفة وخراب العالم القديم. ومن هنا يستحيل علينا أن نقيم حواراً، أو أن تكون لنا لغة مشتركة. إن لغتي هي هذا العدم ذو الأشرعة. أما الممزقة، والمهووس بخلق مزيد من الثقوب والحركة فوق مسافات الشروخ؛ لغتكم أنتم فمكتملة، ملفوفة في أغشية التين والزيتون وأبخرة التخمّة المعدنية؛ ولذلك فهي لا تعرف مكانه ولا اسمه، ولا المقدرة على التمييز بين الخفي والمرئي. أنا تجاوزت الطلاق لأصل إلى سيدي جلول، وهو أُخْرِجَ عنوةً من الرحم لأنه الأرض، والأرض تينع، تتزلزل، تنجب سلالة طلقتمكم وقبل أن تقبروا فيها تقبركم.

المسافة جسد، فوق الاشتهااء وبعد الإمناء، تسلخ عنه جلده، وتُمزَّق أحشاءه، وتنشره مَزَقاً فيصبح هو الجسد، لا ينفك يعود إلى نفسه، يبعث من مسافات اشتهاائه وهدير ركضه. لحركة الأغصان وصفير العاصفة وتفرُّع الجذوع امتداد فيه، فيكون في التشكُّل الكلي وتصاعد الأهرام، وتسترجع فيه البدائية الرائعة طقوساً من التواء الخصور ومن بشرية تالفة تقدم كلها لأجل بشرية تلهج باسم الخراب وقصف القمم. ها انظروا: الكتابة جسد، فككوه وفككوها، وهل أفهم نفسي بعد كل الذي حدث في اليوم الحاضر ... من يستنطق الحكاية؟!

أريد أن أشهدكم أن هذا الرجل الأرض خرج من الغبراء وتلَفَّع سنين بالوحل. كانت صلاته الوحيدة هي أن يعجن الطين ويحاول ممارسة التكوين؛ إذ كان البشر والماشية

تمشي قُدَّامه. وتخرق صمته وهو لا يعيرها اهتمامًا. والحقيقة أنه كان قد عَيِيَ به الإبصار، وكثيرًا ما تَلَفَّت حوَالِيه، وأعمل عَيْنِيهِ نظرًا، فما تحرك شيء. كان سوق الاثنين، الذي ينعقد في هذا اليوم من كل أسبوع، مأواهم الاجتماعي والاقتصادي ... إنهم يبيعون ويشرون، وأحيانًا كانوا يُباعون ويُشرون، ولم يكونوا يدركون الفرق بين الحالَتَيْن. كان ينتحي له مكانًا في السوق المروث، ويبدأ في النظر؛ إذ يراهم يتصايحون ويتراخضون خلف دوابهم، ثم إذ يتحولون دوابًا يأتي من يركض وراءها. كان أكثرهم من اللاغطين. تصطبخ في أفواههم الكلمات، يبتاعون أشياءهم ثم ينصرفون وهم من «الحامدين الشاكرين» حتى ولو أن ظهورهم محنية، ورءوسهم وطِيئة، أو إنها هكذا كانت من قديم. وسجل هذا في دفتر الذاكرة وفرز ما هو شارة فيهم.

في مكان ما من السوق، وقف رجل آخذ بين يَدَيْهِ بنديرًا يوقع عليه، مرة مرة، ضربات منغومة، ويستهل:

– صلوا على النبي العدنان.

فيأتيه جواب حشد متحلق حوله في دائرة، ونعسان:

– اللهم صلّ عليك يا رسول الله.

ويطلق لسانه برواية يعيُشها الجميع ولا يفقهون فيها شيئًا، ينطلق:

– يا سادة يا كرام، كان حتى كان في سالف العصر والأوان، حتى كان العسل والرمان، حتى كانت الشاوية.

وإذ يصغون يتقلصون ويتقرفصون، ثم تُمَحَى منهم الملامح والصفات ويتحولون إلى حلم مخدر، ويتقوَّسون كالضمة، وهكذا كانوا متقوسين، ولبثوا على هذا الحال ...

وحين أنهى حكايته التي لم يسمعها أحد قال:

– إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

فرددوا معه بصوت واحد وناعس:

– ومن عليها، عليها، يها، هاهها.

هو حيث انتحى يراقب الجمع ويبحث عن المفرد الذي لا يكون منحنيًا أو مقوسًا، وتتعرثر نظراته وراء موكب يريد أن يظهر والصمت عقيدته، صمت مسبح بالاستغراق وبفرح جنوني لا يطاق، يمكن أن يتجسد نبوة أو شمسًا محرقة، كما يكون زلزالًا مهلكًا أو مشمومًا من النوار. ثم ينتفض الموكب-الصمت، ويهرب بسوق الاثنين نحو مناطق غير مرئية، يتناسل الناس فيها من الطين، يعجنونه ويُعَجَّنون به.

ولكن لا شيء حدث ... لا شيء يحدث، ومع ذلك لم تكن هذه الكارثة الوحيدة؛ فإنه كان يريد أن يرى، وكانت الشاوية تخرج من عينيه سهلاً وسيبةً، غابةً وعُرسًا، مجازر وحفلات لا تنتهي للشيخات، يبيع فيها الواحد حتى جلده إذا ملكه، ويهتز في الجذبة تلو الجذبة وهو لا يعرف لماذا هو على هذي الحال، ولماذا يجرع أنهارًا من الخمر الذي جاء به الاستعمار وروحه معلقة وظهره منحني والغيبوبة سكناه.

وجاءت إليه الأرض، تنمّلت فوق جلده وقتًا ثم سَرت كاملةً في باقي الجسد، وكان هو يُمعن النظر فوق رؤوسهم، وأصوات قوية تتدافع فيه وتبحث عن مسلك للعبور. الصمت المحبب لن يأتي، والصخب الواعد كامن حيث لا مجيء له الآن، والأصوات المتدافعة لا بد أن تغمر البلاد ولو بالشهادة.

انبثقت من ذاكرته، وقفزت من فيه صائحًا:

— قل كلمتك ... هذا أوان الشح والسيبة، فقل كلمتك. دعني ودعمهم يسمعونها، واجعلنا نسمع بوح الشاوية. إنني أعلم أنك تريد أن تغيب في داخلك، وأن تستأثر بصمتك ما دام هؤلاء يتمرغون في روث السوق، ثم ما دمنّا قد تواعدنا، وبالضبط، فلأننا تواعدنا لا بد أن ننعم ونشق عصا الطاعة على مخزن السوق. ثم، آه، كدت أنسى، ثم إننا سنتكلم لغة مختلفة، ينبغي أن تكون مختلفة ومختلفة، مليئة بالشعر والأظافر والوأوة والصديد، ولا بأس بقليل من القرنفل والبقي والبرقوق، ثم تأتي الحكاية وقد وطئها الجسد، وطئها، هكذا وطئ يطاءً.

أنا سيدي جلول ولد خير، حامي الحمى في برشيد وسطا وما سيدي جاورها من المدن والقرى المغتصبة، وإن كنت لا أملك من أمر الناس شيئًا، غير أن عاصمتي وما سميته ذات يوم «مركز العالم» هي مدينتي «أولاد امحمد» التي تتبع لها برشيد بأكملها، ومنها تصدر الأوامر والإعلان عن ظهور هلال العيد. وفي زمن الروث والسيبة، كانت هناك طريق معبدة تصلها بالطرق الرئيسية، وما أكثر ما فُرِشت بالسجاجيد الرباطية والفارسية، ونُجرت على جنباتها النوق والثيران. أما حين يعبر السيد الكبير متوجّهاً لتصريف أموره وأُمور أتباعه في المدينة أو التطلع على إقطاعاته المنتشرة التي لا تحدها العين، فإنك لا ترى الطير يطير، ولا البشر يسير، ويطلقون على ذلك اليوم: يوم الخروج الأكبر. وقد ذُكر في

تفسير ذلك أسباب وروايات تناقلها الأحفاد عن الأجداد، ونفخ فيها الرواة وزادوا حسب مقدار الولاء والطاعة، ولكنها جميعاً لا تخرج عما يلي:

(أ) قيل إن خروجه كان نادراً؛ فقد كان كثير الاعتكاف، ولا يجروُ أحد على ذكر ما كان معتكفاً عليه؛ فخروجه ظاهرة، ومن هنا كان سكان الدواوير والخيام الواقعة على الطريق، ينصبون خيام المواسم، ويظهرون فرحة الأعياد بأن يغرسوا الأعلام، وقد علت رءوسها باقات النعناع، ثم يتطيّبون ويرتدون أثمن ما لديهم، ولا يذهب الرعاة بالماشية إلى الرعي لغرض ما. ويؤتّى بالشيخات والخيالة، ولا تتوقف طلقات البارود ولا غناء الشيخات ورقصهن من طلوع الشمس إلى غروبها. وعند مروره، لا يجروُ أحد على التطلع إليه؛ فقد رُوي أن لنظراته بريقاً ما إن تلتقي بنظرات أخرى يُغشى على صاحبها، ولا يُعرف بعد ذلك أيّ مصير يلقي. وعلى جنبات الطريق التي تُقاس بينه وبين الواقفين بمترين على اليمين، ومثلهما على الشمال، يختلف وضع الوقوف بين جاذب ومتمرّع، وبين مُسبّح ومُهَلِّل، وبين مُتقوِّس غُرس عيناؤه أو أنفه في التراب؛ فإن كانت نفسه رائقة، وخاطره منشراحاً، أمر بإيقاف عربته وما قبلها وبعدها من خيل وعربات، وتفضل بالنزول وتكرّم بقبول بعض الأراضي هديةً وامتناناً على ما حبا الواقفين من شرف بإشراق طلعه المهيبة عليهم وعلى آبائهم وأجدادهم وأجداد أجدادهم وأولادهم وأحفادهم من الأولين والآخرين ... إنه ... إنه ... إنه.

(ب) وذُكر أن يوم الخروج هذا يكون موقوتاً بتقديم أبنكار الفتيات وأشدهن حسناً، يُحمَلن فوق السروج مُحمّلات، ويوضّعن في طريق مروره، وينتقي من كل دزينة واحدة أو حسب هواه ... والقبيلة ذات الطالع الأبيض هي التي تُنتقى فتاتها؛ فإنها تعيش طول العمر في أمن وأمان، وتصبح لها صولة بين القبائل الأخرى. أما الأخريات فإنهن يُحمَلن للعمل محضيات وخادِمات لسيداتهن المحظوظات الجميلات المكتنزات المحجبات الطاهرات، آت، آت، آت.

كما كان له يوم أعظم وأخطر شأنًا سُمّي بيوم الدخول الأكبر، وهو وقت بين الليل والنهار، غير معلوم، ولا يخطر على قلب بشر ... يكون هو في الخارج ثم يصبح في الداخل، وعندئذٍ تنغلق الأبواب، ويُسمَع صرير المزاليج وقرقعة الأبواب، وأسوار تقوم وحيطان ترتفع، ثم تُحبّب الدارة الكبرى بحجاب من ضباب أو أشعة باهرة، أو هكذا يُخيّل إلى الناظرين، الذين ينزل على قلوبهم هلع عظيم وخشوع مستطير، فيدخلون بدورهم في التسبيح والصلوات

والهمهمات، ويمكثون على هذا الحال كما يمكث هو زمناً لا يُعَدُّ بالأيام والليالي، إلى أن يُطْلَقَ النفير، ويخرج من ثقب في الدارة منادٍ يمشي في الأرض يعلن بين الناس أن ميقات الخروج وشيك. وعندئذٍ ينهك الجميع في الكنس والتشذيب وجز أصواف الأغنام وسقي الأغراس وبذر البذار وتبييض الأسوار، وتنهق الحمير، ويختلط الثغاء بالنباح، الصهيل بالركض، وبالأرض تحرث تقلب وتطوى، فكأنها القيامة — يقول سيدي جلول ولد خيره — ولكن لا أحد يصله علم بخبر اعتكاف السيد وانشغاله، فذاك سرٌّ تنهّد له الجبال، فكيف بالآدميين؟! ثم إنه هو من هو منشغل بأمر المخلوقات من بشر ودواب وما بينهما في «أولاد امحمد» وما جاورها؛ ففي اعتكافه، ولا شك، تدبير من عند العلي القدير لصالح الدنيا والدين، ورد المارقين إلى الطريق المستقيم، آمين، آمين، وسبحان ربك رب العزة ... وسلام على المرسلين ...

لكني أنا سيدي جلول، ما شأني بجميع هذه الطقوس، وأين وكيف مكاني من هذا الخلق العجيب؟ وللعلم، فأنا لا أريد أن أثير فيكم أي دهشة؛ لأنني أخشى عليكم منها، ولا أن تنظروا إليّ نظرتكم إلى الخوارق والأولياء. أريد أن أوكد لكم أنني واحد مثلكم، له ذات الحواس التي عندكم، ومثلها من الصفات والملاحم، بغم وأنف وعينين وأذنين ويدين وقدمين، وإن امتلكت مقدرة الدخول إلى نفسي والخروج منها وقت أشياء، وأحب البصر إلى الداخل بعد أن أعياني الخارج ويئست منه. قد تسألون عن السبب، ولكني لا قبل لي، الآن ولا بعد هذا الزمان، على رواية التفاصيل، وأكرر على أسماعكم، إن كانت ما تزال مصغية، بأنني لا أميل إلى الحكاية ميلكم وعشقكم لها، وأحب فقط أن أتفرّس في نفسي وفي الأشياء، وعندي نظرات تثقب، وكثيراً ما تنجح في الوصول إلى كنه المرئيات، ويأتي عليّ وقت لا أغمض فيه الجفن، ووقت آخر أظل مفتحه؛ ولذلك فأنا كنت الوحيد — وأقول هذا بلا تواضع — الذي شاهد ما شاهد في «أولاد امحمد»، ثم في بلدة «برشيد»، ثم في الشاوية كلها. وبهذا أكون مرجعاً تاريخياً بلا منازع لكل من يريد التعرف على «أمجاد» هذه المنطقة من الأرض التي دبغت جسدي. الطير تعرفني، والقطط، والنجم يغمز لي، والأسوار تحتك، والسيد الكبير، الذي أراد أن تكون لي معه قرابة بالعسف، كان يتتبع أخباري، ويطلق في أعقابني من يتتبع حركاتي وسكناتي، فلا يعودون إليه سوى بشيء واحد: إنه ينطق بكلمة يتيمة أسيدي وسيد أسيادي، يقول: الوعد، الوعد هو الوعد.

كنت في خدمة السيد الكبير، كما هم جميع من يمشي على هذه الأرض ... أؤدي له فروض الولاء والطاعة والانحناء، ولا أبداً كلاماً أو عملاً أو أنهيه إلا مُسَبَّحاً باسمه، راجياً بركاته، داعياً له بدوام العز والسؤدد. تخرج المشافهة من فمي مثل حبل لا يريد

أن ينقطع، وتلتقي مع حبال أخرى حتى تتجمّع في شكل هضبة كبرى يأتي من يزكيها بالبخور، ويلقي إليها بالجمر فتصعد نارًا مقدسة، ومن وراء الأسوار تأتينا عبارات الرضا في مهمة تنخلع لها القلوب، ويكون ذلك بشري لنا؛ إذ تخرج أكياس الحبوب من مطامير على رأسها رجال صناديد، ويوزع الزيت والسكر، ومن كان سعيد الحظ يُعفى يومه من الجلد، أي، نعم كدت أنسى هذا؛ فالجلد طقس يومي لا بد من أن ينال منه كل من هم في خدمة أعتاب السيد الكبير نصيبه، وقبوله دليل رضا وامتنال، وإن صدرت آهة أو صرخة فإن صاحبها يُلقى به في مهوى لا قرار له، ويتبرأ منه من في الأرض والسماء، وبئس المصير! إنني شاهدت ما شاهدت، حتى من غير أن أعلم أو أقصد إلى العلم ... فنحن كنا نخرج إلى الإقطاعات الواسعة، حاملين على ظهورنا أدوات الزرع والحرث، ونمكث أيامًا وليالي نعمل في الأرض، وننام ونحرق في الأرض، ويأتي علينا وقت الحصاد ولا يعود منا إلا عشرة، وقد كنا أزيد من الألف في «أولاد امحمد»، ولا شفاعة في من مات كما لا جزاء لمن فاز بالبقاء؛ إذ لا بد أن يُجلد عن كل الأيام التي غاب خلالها في الحقول، ويُمنح عطلة قصيرة يقضيها في التبرُّك بمكارم السيد والدعاء له بـ... وبـ... وبـ... ثم يراوح في مكانه قافزًا بهلوانًا بين ركوع وسجود، إلى أن يأتي موسم الحرث الثاني. وإذ نعود إلى رحاب الدارة الكبرى، تستقبلنا النساء مُحملات بأطفال لم يكن لنا بهم علم، ونفهم أنها البركة قد حلتّ بهن في غيابنا، وأن هذا من فيئته وجوده ورضاه المسبوغ علينا. وفي كل عام، يكون لنا أولاد وأولاد لا نعرف عددهم أو أسماءهم، ويجيء من يفهمنا بأنه يجب الإكثار من النسل حتى نكون خير مدشر للناس!

وبالفعل، فإن أمر «أولاد امحمد» عجيب؛ فكلما نُكِّل بهم ومُرِّغت أعراضهم ونُهبَت أرزاقهم، ازدادوا مرحًا وامتنالًا، وتضاعف شكرهم للسميع العليم، وهم لا يعرفون الشكوى أو التذمُّر، ومن خصالهم الفريدة تلذُّذهم بالجلد؛ فقد حدث مرة أن تغافل القائمون عليه فهبوا مندفعين، صارخين، وكان الصراخ يأتي منهم للمرة الأولى، يطرقون أبواب الدارة الكبرى، ويُحكَون ظهورهم وعجيزاتهم بأسوارها محتجين، لاغطين:

- المسويطة، المسويطة، المسويطة. إلى أن خرج إليهم العسس فجلدوهم، ورفسوهم، وسلخوا جلود بعضهم، فعادوا من حيث أتوا، فرحين مستبشرين مُهلِّين مُكَبِّرين. ويومها بحثوا عمَّن يكتب لهم عريضة رفعوها إلى السيد الكبير لمعاينة العسس؛ كي لا ينسوا أو يتغافلوا، مرة أخرى، أمر الجلد الذي هو بركتهم الوحيدة. ومنذئذ لم يَنس أحد، وعلى الجميع أن يذكر ويتذكر ويهيم في الاستذكار بأنه كان وما يزال في جميع ديار الشاوية.

أي خديجة، نحن جئنا من أقاصي البلاد، أو لعلنا استيقظنا ذات صباح فوجدنا أنفسنا في «أولاد امحمد»، وطفقنا نبحت عن أنفسنا وأحوالنا ونتساءل عما ملكت أبدينا وما لم تملك تحت شمس غيمه وحرثه ونسله. السؤال حار على ألسنتنا، له مذاق السيف القاطع، ومرارة كل يوم نعيشه هنا. لعلك تذكرين كم قطعنا من المسافات حتى نُقْبِلَ بعضنا؛ فليس يجوز لأحد أن يُقْبِلَ سواه، وليس لأحد أن ينجب، وعلى الملأ، سواه ... وتذكرين كيف أن عسسه اشتَمُوا رائحة قُبَلتنا، وطَوَّقوا الخيام أيامًا وليالي، واقتطفوا بعض الأبرياء، ثم تذكرين كيف أن أولادنا سيقوا ويساقون إلى خدمة إقطاعاته، واللهات في ركابه، وليس لنا أن نفوز بغير الصبر.

أي خديجة، ها إن وجهينا دُبِغًا بالطين وتكَلَّحنا بالصهد، وها نحن ننظر إلى الأرض ولا نطمع منها بقبر يُؤوينا في آخر العمر، فيما ترتع خيله وكلابه ومماليكه، ثم تمتد العاصفة وتنتشر، ثم يردّها دفعة واحدة بسبابته.

ثم إنك تعلمين أننا حملنا الشاوية حلماً في صدورنا قبل أعيننا، وربيناها طويلاً وحدبنا عليها فتصاعدت في عروقنا؛ فترَبَّتْها منا، ولوننا ودمنا منها ... دمنا هو ما يجري في شرايينها، حتى إنا توحدنا وصرنا لا نقدر على مغادرة هذه الأرض إلا إذا وجدنا وسيلة لنقلها معنا والهرب بها من معتكف الدارة الكبرى.

وحين حاولنا ذلك مرةً وجدنا أقاصي البلاد تُطَوِّقنا. حين تسلَّلنا ذات ليلة، ورُحنا نطوي الأراضي والحقول، ونضم الزهور والسنابل، وانطلقنا نعدو بها تحت جُبح الظلام في اتجاهٍ نهله، كانت المدن والدواوير الأخرى لنا بالمرصاد صائحة: لكل أرضه، ولكل أرض سيدها، ولكل سيد عبيدٌ وأنتم عبيده، فعودوا إليه. فلم نملك من أمرنا شيئاً، وعدنا ملفوفين في الطين وإن كانت الأرض تُحَبِّي وَعَدنا لحين.

أي خديجة، ها عطشي مسفوح، ودمي مشرع في جنباه وظهور كل هؤلاء المحنين. ها ذلك الشوق كعهديك به يفترسني ولا أجد له ما يُطفئه سوى أن أضمك يوماً في العراء وتحت شمس تكون شمسنًا، وبخبرٍ نمضغه ويكون خبزنا، وبعيداً عن أعين الرقباء، وبعد أن تكون الديدان قد أكلت أعينهم. هذا جسدي شاهد على عشقي كما هو شاهد على عشق الشاوية، لا يثنيه جلد ولا خوف. ستكون الأخبار والروايات كلها قد اجتمعت يوماً على لحمي وقد تأكل، ودمي وقد صدئ، وأكون أنا والولاه الرائع والزمن القادم قد انعقدنا على رأس فوهة أو قمة جبل أو انفجار غيمة، ونحتفل وقتئذٍ بعرس ترقص فيه الأشجار والسنابل، ثم نفتح أعيننا بعد أن أغلقها هو لزمن طويل، وننظر إلى الداخل، لا بد أن نفعل. هكذا يقول سيدي جلول، وارثُ سر هذه الأرض، هو ... هو ... هو.

أنا صاحب هذه الأرض، حين وُجد العالم وُجدت هنا. ولولا وجودي أنا لما كان لأولاد امحمد ذكر ولا صيت، يسمونني «السيد الكبير» وهم بي يكبرون، وبسداد رأيي يمشون. هذه الحشرات والأنعام ماذا كانت تفعل لو تخلّفت عنها يومًا، ولم تكن لي عين ساهرة عليها صباح مساء. إنني أمتلك السر الأعظم، وما ولد خيره إلا دعئي ومارقي، وستنهشه كلابي لوقت معلوم.

الخلق لي، الأرض لي والسماء وما بينهما، أنوف الناس وأقدامهم ومؤخراتهم. أما نساؤهم فأكرّمهن بإخصابي ... ذاكرتي وعبقريتي تَسعُ الدنيا والآخرة، ولا يفوتني شيء مما يجري في الكون، لا تفوتني رفة عين ولا الشهيق والزفير. أرصد أحلام خُدّامي وأتباعي إن زاغت عن الأحلام التي أفرّرها وأرصدها كل موسم، والمشافهة لا ينبغي أن تخرج عما أُحدّده وأُعده من كلمات. وكل فكرة تأتي أو تتسرّب من خارج الشاوية أشنقها بنظرة، وما لي أحدثكم عن الأفكار! لا حاجة لنا بها في هذه الديار؛ فأنا مصدر كل فكرة، ومخلوقاتي تهيم بالجلد، وتستهوئها الشياخات ورنات الطعريجة والبندير، فأقيم لها المواسم وأنصّب لها الخيام، وتصوّروا، فأشرفها بحضوري دقيقة أو دقيقتين، وأتعفّ فلا يضم فراشي ليلتها مما يُقدّم لي من أبكار سوى عشرة أو عشرين، تفيض فيهنّ روحي، ويرتعن تحت أعطافي، ويفزن بثواب الدنيا والآخرة، آخرة ... دنيا ... دنيا ... آخرة ... يا ... رة ... رة ... رة.

نحن سكان الشاوية الذين لا نعرف كيف نوقع أسفله، نحتج صمّتا، على الدعّي والمدعو «السيد الكبير»، ومعذرة إن كنا نقول هذا سرًّا لا علانية؛ إذ لنا في التقية حياة؛ فمن أعصابنا المشدودة إلى الحرث والحصاد والدّراس، تبدأ حياته، ومن ركوعنا وسجودنا يستنشق الهواء، لولا أجسادنا التي تتهاوى تباعا لانشقت أسواره وهتكت عورته ... ماذا عن عورتنا؟ عورتنا؟!

نحن عراة منذ بدء الخليقة، وجدنا الأرض أو لعلها هي التي وجدتنا فاقتاتت منا وتتابع بصمت، وحين هممنا بخطف زمنٍ بارق، ألفينا أنفسنا مختطفين في عشق الشاوية:

أيّتها الأم، أيها النهد
يحترق الصهد الذي في ساعدٍ وزندٍ
ويخترق السهم الجمجمة
لا أعول على الطريق الوسط
لا تكون عُمدتي مشاعل من ورق

زمني أول التكوين

زمني احتراق المسافة بين الآتي والتكوين

مغارة أوهام أو هو خلط وزندقة

نحن العرب ننشب الناب العضوض في الرمل.

وتنجلي المأساة عن هشيم خرافة. بين يدينا اليوم كتاب ندعوه الهجرة، وتحت الشم نجوم ومواقيت. صحيح أننا تحمّلنا الجلد، بل وطالبنا به شرعةً وتعويذةً، ولكن الطريق إلى آمالنا كانت مبعثرةً. ها نحن اليوم العبيد الموزعين قبائل وأشتاتاً، كما في جاهلية العرب، نريد أن نبوح للأسطورة بشيء ... ما أقوى أسطورتنا في أسطورة الشاوية! وما أعظم السيد الكبير في الدارة الكبرى! أمهلونا ... يلزمنا رشفة ونومة ورقصة وطعريجة وبندير وتمزيق للحدود والصدور، ومولاتنا أدامها الله العلي القدير، القدير العلي ... أمهلونا تاريخاً وإلاً فلن يعود لنا رشد وننكفئ نحن «أولاد احريز» على صدور — بطون — أبراج بناتنا وزوجاتنا الحلال علينا وغير الحلال، ونفقس في الأرض جبلتنا المطاردة. ولا ننسى أن نخبركم أنه هو وارث سرنا، هو السر والعلن، هو الظهور والخفاء، هو الوجود هو العدم. أما نحن فمن نحن من؟! إلا أننا نحس به يختلط فينا بعض الوقت، فتظهر علينا أمارات غريبة، وتأتي أتباع الآخر من وراء الدارة ليحرقوا حوله البخور بزعم طرد الأرواح الشريرة والشیطان «الرجيم»، وكأن هذه الأرواح توغل فينا وتعمل فعلها، فتترك كل ما بيدنا، وننزع عنا الخرق التي تكسوننا، ندخل في الحضرة والبندير سيد الموقف ... نجذب ونجذب، وتتناقل القبائل الأخرى يومها أن «أولاد احريز» ضربتهم الجائحة، وأن الجائحة قريباً ستعم كل القبائل والمداشر، ولعلها واجدة الطريق إليه ولو وراء ألف سور وباب. هو ما زال يذكر تواعدهما وإقرارهما على الصمت في الخطاب الواحد، ووصل ما انفصل حين تكون الهوة واسعة، ثم قطع ما يتصل حين تصبح العُرى متينة؛ إذ لا ينبغي أن تتمنّ، في رأيهما، أية روابط. كل توثيق هو صنع شبكة من الوهم. وهذه الأمة الرابضة في هذه الأرض شبعت أوهاماً.

ولم يكن له سوى الصمت الغباري يزدرده في أيام «برشيد». أزقة وطرق خُطّطت ووضعت بالصدفة، ودُور اصطفت إلى جوار بعضها بصدفة أقوى لا تعرف تشكلاً ولا هندسة؛ لأن البشر الثاوي فيها لم يكن له منهاج في حياته ولا مستقبله. ورغم كل ما كان ومضى كالحا وyla طعم، فإنه يستطيع أن يُشغل الذاكرة، لا بل ليجعلها تحتل حضورها المطلوب، وهنا لا بد أن تفرقع أسوار الآلام ومكابدات الكبت الراكدة تحت المسام، وحينئذٍ

يريد هو أن يتذوق شيئاً من ماضيه الذي ما زال يسكن عظامه ويهترئ فيها. وفي مثل هذه الديار، حتى وإن كان تكوّن الذاكرة ضعيفاً مهترئاً، فإنها تكون الشيء الأخصب والأجدر بالاهتمام للوقوف في وجه النفي المطلق. والحقيقة أن الذاكرة كانت منفية في نفسها، وفي العدم والرعب الذي يمتد بين الطريق الزراعية الواصلة بين «أولاد امحمد» و«برشيد». تلك الطفولة انزلت بضع سنوات وراء عربة لا تتوقف فرقة السياط على جيادها. ولصدى الفرقة يتهاوى كل من في الطريق، ويظل هو محمولاً على صدى الطريق المنهوبة يُناهبها، ويستطيع أن يسجل عناصر الغبار والأتربة والوحل المتبيّس، والفقر المدقع للخيال، ثم تلاوات ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي...﴾ في لوح لا يزيد الدماغ إلا صداً. وماذا يستطيع أن يستدرج الآن من ذاكرة النسيان أو التناسي حين لا تتحرك في النفس أمام الحيطان والطرقات التي بانّت متأكّلة سوى رعشة حنين على ألفة مفقودة، ورجال غامضين ملفوفين في جلايب بيض وسود تعمر بهم البلدة، وخاصة في سوق الاثنين، عشيتها يكون الجميع على موعد تاريخي مع قصعة الكسكس، والإخصاب المنوي الدافق لإنجاب مزيد من التعساء وعديمي الهوية، فيما يكون الدراري يشقّون الليل المدلج بسكاكين صراخهم ونزقهم. وقيل وقتها بأن الجنيات اللواتي يخرجن من الثقوب أو يصعدن من المراحيض أو عند إهراق ماء ساخن، يجئن من حائط «كبريان»؛ حيث يعيش بخصر البلد بشر يقتات من نفسه، ويتخذ «السيد الكبير» مادة احتياطية لإخصاب إقطاعاته.

ذاكرته كانت تسوح إذن في الليل والجنيات والنزق والديكة الكرتونية المتناقرة، ثم الحر الغباري ... وأي شيء يمكن أن يكون مبهجاً؟ فالجلايب السود لرجال نهمين كانت توقع النظرات والقلوب تحت وطأة أسرار مبهمة. شيء ما جعله يصر على أن وراء وجود هذه الطرقات والدور المعوجة والتفكك اللامفهوم للسحنات، والطقوس البدائية العائمة، لغزاً ما فيقود نفسه نحو الخلاء المنتشر ليحكّ كل هذا في ذهنه ويجعله ينفرط. ولكن ما هذا الذي يمكن أن ينعقد أو ينفرط، ويحس أنه لو استمر في هذا التعب اللامُجدي، سيحمل رأسه إلى أقرب صخرة ويشجّه ليتخلّص من قهر لا يُحتمل، لفراغ وسديم من مجاعة الروح التي، على صباها، نريد أن تُحلّق بأجنحة علامات مطلقة لا يكون هذا الخلاء المفرغ من أي معنى هو مداه الوحيد.

وستظل هي قائمة في مكانها لا تَريم، تملأ ثغرة الرعب بين مهوى سحيق والدارة الكبرى ذات الأقفال المرصودة بالغاز الغيلان. ليس الوهم، ليست الخرافة، كما ليست «برشيد» مسئولة عن عطش القرب والبعد من «سيدي جلول ولد خيره»؛ فهل دعاها

ودفعها إليه أم هي جاءت تخطال في رفيفها الحليبي، في ليلة عاشوراء؟ كانت المسألة كلها لعبة، أو لا ينبغي أن تخرج عن هذا الحد، ولكنه كان يتبَّين صورتها في الماء وعلى الجدران، ثم تطُفر فوق الزليج، وتنسكب في خيوط المطر، وتعتلي سرج العالم الصغير الذي كان عالمه فتصبح الفارس، السر والمفتاح، وتصير البلدة حديقة في كتلة هيولية تُدعى القلب. ولم يكن بحاجة إلى الأحلام كي يمكس بتعدُّد العناصر وتداخل المسافات بينها، أو لينطلق مشقوق الصدر في ما أخصبته الأرض الخلاء والبلدة المثخنة بسياط «السيد الكبير»؛ فقد كان ربيب الحلم، انخرطت فيه ذاكرته وأوى جسده من لحظة الانبثاق وجاءت هي فتأله ... آه، تأله.

ما عناء أبدًا أن ينساها أو تظل مقيمة في شعاب الذاكرة ... أن ترحل أو تبقى «برشيد» مرقدًا، أو تظل بين رواح ومجيء، ولكنها تلك اللحظة البريئة-الآثمة في أن؛ حيث يمكن استجماع الألم والشهوة في رفة عين، وينتهي العالم بعد ذلك ... يرقد تحت جفنين استسلما كقُبلة طوت تحتها الشاوية المكدودة، المحروقة، المسوطة، المجدوبة، وطوته هو الذي وقع في أسر الغبار، وهيمنة الخلاء الفارغ، ولغز أصحاب الجلابيب. ويذكر أنه في صباه البعيد قال، أو همس، أو صرخ، فقد كان منتفضًا:

- الوقت هو العين.
- الزمن هو الرهبة.
- الرهبة هي اصطفاق أضلاع الأرض وخروجك منها.
- التاريخ هو سلح «السيد الكبير».
- الحلم هو أن تكون أو لا يكون.
- هو انبثاقك من منعقد الغبار ودخولك زماني.
- هذا البياض السابح على أديمك هو سمائي الوحيدة.
- التكوين هو ضفيرتك التي تبدأ غصنًا وتسرح غابةً.

ورغم أن الأمر كان محض لعبة، فقد سُمِّيَا بالعاشقين، ومن ليلتهما تلك ظل يسأل نفسه: أيعشقها هي أم الشاوية أم زمن التكوين الذي لا يتكوَّن أم «سيدي جلّول ولد خير»، أم يعشق العشق ذاته، أم الزمن الإشكالي الذي سيجي؟

«سيدي جلّول ولد خير»، نعم أنا هو في مكاني؛ حيث انتحيت من السوق؛ سوق الاثنين الشهير، في هذه المنطقة مطلقًا. وإذ أكون هنا أوجَد في مكان وزمن آخر؛ ولذلك عبثًا

أن تبحثوا عن التحديد، وابدءوا منذ الآن بالتفكير معي في الزمن الإشكالي الذي سيجيئه؛ فأنتم مذ بدأتُم الرحلة راهنتم على شيء ما، ولو على رهان خاسر، ليكن. هو بدوره راهن على عمر أراد له أن يتشكّل، وأرض أن تتركّب، وكيمياء للزمن أن تتفاعل، وهو لا يعلم إن كان سيربح عمره أو سيُضيعه كما ضاعت كل الأعمار من قبل، ولكن شيئاً واحداً كان قد شدّه إلى «برشيد» الموسومة بالجنود حين قرر أن يملأ الخلاء بمخلوقات من عنده، ويجعل الذاكرة تدق أوتادها فوق رءوس خربة، أراد أن يستنطق الأسماء والأشياء، تعلّمها وأحب أن يفتقها، ثم أن أكون رفده في الحل والترحال.

لكن ما شأني به وإن تواعدنا فأنا ذاهل في البلاد، خرقة تكسو جلدي، أضرب في الأرض، أوزع هموم الشاوية على العالمين، وأبث في نفوسهم بعض أشجانها، أحمل نشيدي شجناً لا يفارقني من العيطات بحيث أمشي وتتقدمني جوقة من الشيوخ اللواتي صدئ عمرهن في ترديد سِرّ العشاق ورثائهم، وأنا واحد منهم، فهن جيشي، بهن أغزو البلاد وأفتحها، ولقد رأيته حين رأي أسير في هذا الموكب، فرغب في أن ينضم إلى جمعي الخفي، فدفعته عني برفق، ونصحته بالمكابدة، حتى وإن كشفت له عن اسمي وبعض تجلياتي، وقلت له تمهل فدورك آتٍ لا محالة، وأنا لا أريد لك الخرقة والجذبة، أي ما يجعلني دماً وحصاداً في كل موسم أظهر فيه، وما تتفاعل به الأرض فتتسلخ عن أسوار الدارة الكبرى وحيطانها.

الآن افتتح زمانك وادخل زمنك ... أطلق شراع ذاكرتك، تجنّح بغربتك؛ فأنا أعلم أنها مأواك وملائك ... سيطلقون الجراء والغربان خلفك وقُدّامك، وذاك دليل على أنك سكنتهم وبت لغزاً في أعينهم ... لغزاً لا يصدأ وإن علاه الغبار والطين؛ فهو يشع ويشد العين والجدوع، ويجذب إليه جحافل مخلوقات لا تُرى، لا تتقوَّس لها الظهور ... شريعتها الأيام المندفعة أمامها، وهي تُوزَّعها في قنوات وضيئة.

سيكون على الأشياء أن تتحدد، منذ الآن، على الأقل من جهة الزمن (ما هو الزمن، الوقت، الأيام، العمر؟) ومن حيث التكدُّس ... والتكدس عندئذٍ يمكن أن يكتسب أوسع المعاني وأغناها، كما أنه يمكن ألا يطل أضالها. ومن هنا فإن الحركة، إذا كان لا بد أن تتحدّد على هذين المستويين، بالتدقيق، فإنها بالنسبة للباقي (أي باق وهو الباقي؟!) فستظل تسبح في المجال العالم والنسبي للوجوه والأشياء، بل للطرق والأسماء.

لماذا؟ لأنه ليست هناك خرائط كاملة أو ناقصة، ولا أزمنة أو أمكنة، كما لا إثم ولا براءة. التفاصيل للغارقين فيها والذين يعدون جدول الأيام، بينما العالم يصعد ويهيج وفقاً متواتباً، ولا يهم بعد ذلك كيف تكوّن؛ إذ في أحشائه شطحات ميلاده وفنائه، والهيام

أساسي بهذه الشطحات حين تلغي التعاقب الرسمي للفصول، والتوافد اليومي للمواكب، ويحدث لنا أن ننتقل من صعيد الحقيقة؛ لأنها سقطت، إلى مدرج التخيل؛ لأنه باقٍ ومستحيل.

وليطلع هذا التخيل من جحيم التكرار والأعوام المقررة كالبرامج الدراسية أو علامات المرور، ثم لا بد في خاتمة كل رحلة من الوصول إلى التَكْسُر ... تتزعزع الأجساد لتبدّد وتخرج من رحم الأوهام المضطهدة الأطياف. ولأن الطيف لغة، فهو لا بد أن ينطق ويقلق، ليخترق الصمم الساكن الطرقات والأسماء.

من هنا ستكون البداية الثانية مطلقة كل البدايات، ثم مطلقة نفسها وطلاقتها، وحيثما بدا أن هناك استقرارًا ما، يتم القفز فوق عربة عابرة لمزيد من التأكيد على الانطلاق الأهوج، المتوحش، الفنائي.

ونعلمكم أننا آتون، تسربت بنا البلاد أم أخطأنا تناثر الجهات ...
أننا آتون، كانت الأفواه مكمنة، العيون مسبلة، أم شعشت فينا أضواء المدن البعيدة، وكنا، ولو لمرة واحدة، الهبوب المنتظر ...

أننا آتون نريد أن نختم تعاليم القيد، الدجل، طواحين الكلام، بالكلام الصاعق وعنف متشح بأجساد لا مرئية ... تساقطت الأجساد تبعًا هادمين لغة.

وسيجيئونكم، دون تحذير، وهم قادمون، لا تهلعوا أو تهجعوا، بعد أن دوخونا في كل شيء وبكل شيء، وسنرى منهم العجب العجائب، سيركضون فينا ... الأقزام وحدهم اليوم يركضون، وعلينا إن أردنا النجاة أن نتمسك بتلاوة فقه الشهوات الخارقة، رد الطنين والتنصت إلى الخفقان، وهم قادمون، من كل ثقب ومكان ... الشوارع دولتنا، ولنا الطرق والأسماء، مؤقتًا، إلى أن يحيا التوقيت المحلي للمغرب الذي لا نعرف.

ضغط الأقوال والصراخ وتدافع الأكتاف ينز الآن عرقًا من جبينه، عرقًا ساخنًا بعد أن فارت أعصابه طويلًا، وأتم الكلاب مجزرتهم الرهيبة.

عند حمدان، وحتى ذلك اليوم، كان التاريخ كتلة واحدة، والتشابه هو ما يسم الأيام، الأكل اليومي، وجلسات المقهى والهموم الاعتيادية، سواء له أو للآخرين، كل الزاد في الحياة. وقليلة المرات التي يذكر فيها أنه كان يحلم أو يعطي لنفسه هذه الفسحة من الحرية.

حرية؟ أي حرية هذه التي ترد على تفكيره الآن؛ لا هو يقصد أسرته، ولا من حوله ممن يعرف، كان يملك شيئًا أو يستطيع إرادة ما؛ ولذلك فهو لا يقدر أن يتمالك نفسه من الضحك وقتما رنّت تلك الكلمة، أو استعملوها بحق أو بباطل.

هم كانوا — الذين لا يحتاجون إلى تحديد أو تسمية — قد بلعوا الأرض والبشر والوقت نفسه، ولم يستطع أحد أن يقدم له جواباً شافياً لسؤاله عن معنى الاستقلال؛ تلك الذكرى البعيدة - القريبة، لكن الكامنة في روحه. ودفعاً واحدةً كان قد حسم حيرته غير المجدية، وقال: الاستقلال لهم، والمغرب لهم، أجل لا لغيرهم!

من قلب حيرته الصعبة ومزاجه المتعكّر دوماً، كان يقترب من شبه قرار، أو حتى نزوة، بأن يبدأ، أن يشرع في فعل ما، ويثبت لنفسه وللكائنات والجدران والكراسي أنه موجود، وظل موقناً بأن عنفه الداخلي يمكن أن يسعفه حين إعلان القرار (أي قرار ... تتابعت القرارات وتداخلت؟!).

ليس الفتى الطيب من أعلن لحظة ميلاده، لم تكن وجبات الاقتيات الوهمي كافيةً لفرش الطرق الموحلة لـ «برشيد» بزهور الغد، ولا لتلويث صورة ذلك «السيد» الذي وُلد وظل كبيراً.

هناك تعطل ما بين الذاكرة وزمن التذكر وبين حركة القدمين، وحين يبدأ دبيب «الوعي» تصبح شوارع الدار البيضاء كاهلاً على العباء وليس العكس. يفتح عينيه على الساحات لتختفي هذه عن العينين!

في البداية كان عليه أن يتأمل التشابه، وأن يفلق يقين أنه كائن، القبول بوجود التعدد في النسيج الواحد المتمدّد. ولم يكن هذا بالأمر السهل عليه، أو بالأحرى على محدودية إدراكه للعالم حتى ذلك الوقت. يسرح الطرف حوله وإلى داخله لتنهض للتو، وعلى الدوام، صورتان أولاهما للماضي وقد حسب أنه صفّى الحساب مع تلك التركة الثقيلة، لكن ما بال النظر الآن يتباطأ؛ فهو الذي ظن أن «السيد الكبير» قد انهار وتلاشت أصدائه يراه اليوم يتلبّس أشكلاً ووجوهاً بلا حصر، لا بل ها هي رموزه تُعَمّي البلاد، وإن كان في سلالته، ثم في عشيرته المحدودة قد انكسر، وهو يلوح الانكسار؛ فهي عُقد وأطراف تلك العائلة المتهاوية وهم لا يعلكون اليوم سوى ذكريات من الفَخَّار الشاحب عن ذلك الجد البائد، فيما أكبر جد ما زال سهيله يعلو من المآذن والمناير، وتنتشر آياته كالفطر. كان موقناً بأن تبديد التشابه لا بد أن يبدأ من هنا، وأن لا بد أن يفقأ تينك العينين المحدثتين في كل شيء، والمطلّتين من كل مشهد.

وهو يزرح تحت ثقل قراءاتٍ أغلبها خطّها كتاب «ملفقون» كان يحس وما زال هذا الشعور يملكه بأن ما هو محمل داخلها لا يعدو أن يكون مراهنه ومهادنة، وهو يريد كسر القاعدة، كسر إيقاع زمن أجوف ضد التتابع الرتيب لمشاهد الأيام الخائبة، غير أنه ظل دائماً يريد أن يعترف بأن ما بات اليوم يقيناً عنده لم يكن، في أوله، سوى قلق ممرض

ومقرف من المراثيات المنبجعة وهي تستكين أو تتراخض بلا معنى، أو تتراجع إلى الخلف، وقد ظلت طويلاً تفعل ذلك. وهو، هو بالذات، كان يريد هذا لهذا التراجع، أو لتراجعته على الأقل، أن يتوقف، وأن يطلع منه شيء ما كان له أن يحدثه، أو لعله ما كان في الحقيقة يرغب في أن يتم هذا الطلوع داخل أي نظام أو دوائر محجوزة وحاجزة. هذه الروح القلقة، المتذمرة، الصاعقة المصعوقة، روحه لا تسعها الأمكنة، ولا الوقت قادر على الالتفاف عليها؛ ولذلك بان الطريق صعباً قبل الخطوة الأولى، ولكي يصنع الحركة لا بد أن يفهمها، أن تنهض الأشياء، أن تخرج من مخابئها، ثم هو يريد، بحرقه، أن يقتل البشر أنفسهم، وأن يستمر هذا القتل إلى أن تنكشف الحياة أو ليكن العدم سيد الساحات.

عدا ضجيج دماغه، لا يتذكر هو أن كان شيء، ثم ها إن ما حدث حدث، فكأنها القيامة، والأرض تسلخ جلدها وتنهض مرة واحدة. والذي حدث لا يمكن أن ينساه وإن أصبح اليوم مثل الذكرى البعيدة المشتبه في وقوعها حقاً؛ إذ تم ما تم و«أعيدت الأمور إلى نصابها الطبيعي»، إلا أن الذكرى تعود اليوم مثل الشرط على يقين الوجود بعد أن اهتز الوجود واليقين معاً!

كانوا جميعاً في تلك السن العامرة بالحماس، وكل واحد يحس بالآخر كنار في لهب واحد. ثلاثتهم يجمعهم وضع دراسي وأسري ونفسي واحد، ولعل التفاوت في حدة المزاج، وفي أحلام الليل هي التي كانت تمايز بينهم.

حمدان، مصطفى وقاسم هم فورة الغضب في قاعة الدرس والشارع وبيوت الأهل، وحين يلتقون في جلسات النقاش مع زملاء أو خصوم فإن الغلبة لهم، ويتحول المكان إلى أحجام كبرى من الضجيج والأصوات المتقاطعة، وحين تتداخل الشعارات وتبح الأصوات يبقى احتجاجهم عالياً، ورفضهم قاطعاً لا يتخلل إليه وهن.

حدث ذلك في الزمن البعيد، وحين قال مصطفى:

– هذه البلاد مزرعة للصوص والكذابين، وها نحن نطوي الليل والنهار وننتظر!

كان قاسم سباقاً للجواب:

– وماذا عسانا أن نفعل؟! الجميع يعرف هذا، ونحن نكتفي اليوم بالتحصيل وهذه

الأفكار والنظريات، ومصرنا أن نأخذ الشهادة.

ثم طز. أردف حمدان، وأخذ يبعثر كومة من الكتب والأوراق ويقذفها بقدميه. ثم طز لماذا تصلح كل هذه الأوراق؟ وصرخ: لا بد أن نفعل شيئاً، أي شيء، أن يوضع حد للانهيار.

واستمر الأمر بهم طويلاً على هذه الوتيرة، وبدءوا ينقطعون تدريجياً عن المواظبة على المحاضرات، أو الاستماع إلى ما كانوا يسمونه بـ «نظريات الأساتذة الأقزام في زمن الظلام». وفي الليل وكل ليل، بعد أن يكون النهار قد انقضى في نبش الكتب والأفكار، في الليل يبدأ حزن رقيق وشفاف يتسرّب إلى نفوسهم ويشعّ من عيونهم، ويأخذون في تبادل النظر بحيرة؛ أولاً، وإن أسعفتهم جيوبهم بتصميم، ثانياً، لتدفعهم خطاهم على غير هدًى وهم يلقون بنظراتهم على البشر السائب، والبنائيات المتصاعدة من كل مكان، وأشكال الفقر المكسد المختلطة بمظاهر ثراء غير مفهوم، ثم يتوقفون وكأن الأمر مجرد صدفة، عند حانة «النصراني» ببيير، الكأس الأولى من نبيذ مكناس مرة، ثم الثانية، ثم الثالثة مستساغة، ثم الفرح، الحزن والأسى الخفيف يطوف مثل الأشباح، ثم خاتمة السفر يتلوها حمدان:

— لا بد أن نفعل شيئاً، أي شيء ... يا أي شيء، اظهر!

كنت قاصداً الخزانة ذلك الصباح لاستعارة كتب جديدة وردّ القديمة، ولو أن الفصل «ربيع». وكنت وقتها قد انقطعت تقريباً عن كل شيء عدا عن بعض الاجتماعات الطلابية، أو تبادل الزيارة مع قاسم ومصطفى، وهما معاً كانا على نفس الحال. (وأي حال؟!) في ذلك الصباح كانت الدار البيضاء تعيش صخبها الاعتيادي، وتختلط فيها العربات بالسيارات والدراجات النارية وصفارات الشرطة بصيحات الباعة المتجولين.

في طريقي، عبرت أمام بعض المدارس الثانوية، ورأيت مجموعات صغيرة من التلميذات والتلاميذ، وفي مواضع أخرى كانت المجموعات تكبر، وقبل أن أنعطف نحو الشارع الذي يؤدي مباشرة إلى الخزانة، رأيت حشداً من التلاميذ والطلاب يتقدّم ويسبقه صراخ وشعارات لم أتبينها أول الأمر، وانفلت حشد آخر من زقاق جانبي، ثم ثالث ورابع.

فُتحت نوافذ جميع البنائيات، تركت الخادمت الغسيل، والبوابون أبواب العمارات، والموظفون الأوراق والآلات الحاسبة والأقلام، وتوقفت أو اختلطت الحركة الطولية للسيارات، وتداعى المتسولون وماسحو الأحذية، ووقف الجميع يبخلق بعيون متفرجة ومستفهمة، وحائرة في وقت واحد.

لم يكن هناك ما يوحي بأن حركة هذه الصفوف المتقاطعة مُعدّة بتنظيم أو بتوجيه مسبق، ولم يكن يبدو أن أحداً يفهم أحداً سوى أن صوتاً ما كان رابضاً خلف الحناجر، محتبساً يريد الانطلاق.

تتابع الازدحام، وظهر تدريجياً، وحسب ما بدأ المارون والمتفرجون يتناقلونه، أن حشوداً أخرى قد نزلت إلى شوارع أخرى، وأن هذه المدينة لا تعرف اليوم ماذا دهاها،

ولكن التلاميذ والطلاب كانوا في مقدمة الصفوف، وبدأ السكان يقولون في البداية إن هذا الأمر لا يعنيهم، ولكن الأصوات احتدت، والآراء تداخلت؛ إذ كيف لا يعنيهم ما يضرب مصير ومستقبل أولادهم، ثم مع من يستشير أولئك حين يقررون ما يؤدي إلى هذه الحال.

— إن علينا أن نفعل، نحن أيضاً، ما يلزم وما ينبغي لنا أن نفعل؛ إذا كانوا هم لا يهتمون لشيء.

هكذا نطق صوت من وسط مجموعة كانت في حالة تحفّز. فعلاً، فقد كان التحفّز هو الذي يغطي الملامح، وأخذت السواعد والقبضات التي ظلت خاملة، لزمن طويل، تتحرك وتتوعد في الهواء.

لم يعد أمر الكتب والخزانة هاماً، بالنسبة إليّ، على كل حال. فلعل اللحظة الطويلة البعيدة التي طالما بحثت عنها مع مصطفى وقاسم قد حلت. ورغم أنني كنت أعرف بعض الشيء كيف دوّت أول صرخة وانطلق أول شعار، رغم ذلك فإنه لم يكن سهلاً عليّ ولا على صديقيّ أن نتنبأ بما يمكن للأمر أن تتحول إليه.

كانوا مجموعة متضامنة، وكنا فريقاً وفاقاً مبعثرة، كانوا أشتاتاً. وكنا جماعات ولكن في حاجة إلى تكتل. انبثقت رعوس مثل الورود مشتعلة، وظهرت الأيدي محملة بأكداس من الأوراق، وحين رأيته لم يتردد، وسلمني حزمة كبيرة وانطلق، فهمت ما عليّ أن أفعله مباشرة؛ إذ كان لا بد أن أتسلل إلى الأحياء الخلفية، هناك حيث يلتهى الناس بالجوع والخبز والقهر ولا مجال للتفكير في السياسة، وكنت أريد أن أصرخ دائماً إن نقصان الخبز هو خراب في السياسة، خراب في الدولة. والآن، هذا بعض من حرارة الدعوة بين يدي، بعض من دم وتراب فأين هي الشمس؟ ووددت لو أنها تصاحبني في اتجاهي نحو الشوارع والأحياء الخلفية، وأن ندخل لا متسللين ولكن نهبط مرة واحدة كالصاعقة وننتشر، ينهار المكان، يصعد مكان وزمن يخرج من عيون رمادية، وليس عليّ أن أذيع السر أو أفشي روعي، ولا أن أكتم الدعوة أيضاً، وكان لا بد لثرثرة الحيرة أن تتوقف هنا ولتمزّقنا اللامجدي أن يجد مسراه.

في يوم الخروج هذا، يوم الصعود
مدن تذهب وأخرى تجيء
وأحياء في القمامة ... أحياء في منشفة الورد
نخرج من تلافيف الاسترخاء
لنجهز بالزمن المستحيل

أريد أن أتذكّر - لا أتذكّر

ويصعق الغياب بالحضور
ها أنا ذا أُصعق
وإن تتفكك الرموز يظهر الإله-الشعب
إنها جلجلة الشوارع
راكضة بين الموت وبين النار
ليرقص قلبي تارةً في شغف الوردية.
وأخرى ليشتعل من نار الكمد
... وها بلاطات الدار البيضاء تميد
وشارع «الفدا» ليس معبراً ولكن طريقاً للقيامة
وسأذكر أن وجهي لم يكن يومها يستقرئ الغيب
كما لا يستسقي النجم ولا الغيم
ولكن يعوم في الشوارع
نقطة، نقطة ... ثم نقطة دم
وأجساداً قادمة مع بحر الدار البيضاء
والبحر الآن يغزو الشوارع
يئوب بعد إذ رحل في عيطة الحاجة الحمداوية
ونلتقي في مهرجان المنشور المباشر
لنحرض الأمة على الأمة
ونعلن أن القتل أشد من الفتنة
وأن الدار البيضاء، اليوم هل كان أمس
هي القيامة؟!

تقدم نحو تلك الأحياء، وكان يعرف طريقه إليها جيداً، وكان حرصه شديداً على أن يوزع حمولته بعناية وهدفية، بل بدأ يجمع بعض الأفراد ثم يقرأ عليهم الورقة الواحدة، يدخل هذا الدكان، يطرُق باب ذاك البيت، بعض الأوراش ينتصب بين العمال وسطها، في المنعطفات والرقعات الضيقة التي يتداعى إليها العاطلون وماسحو الأحذية، والذين يصلحون لكل شيء ولا شيء ... وهذه المرة كان يتصور أن الواحد الفرد فيه قد تتلث وتربع وتعشر، وأن طاقات مذهلة تصب في كيانه الهزيل، ومن ثم فقد وزّع أوراقه، وظل يركض جالِباً أخرى فأخرى، ولم يكن يظهر على امتداد بصره سوى أن الأماكن تتسع وتحتشد، والأرض تنغل بما حملت، وهو بين أن يكون سهماً مرشوقاً أو غابة كثيفة.

– «لتكن المدينة لنا ... لتكن لنا.»

كان يلهث وهو يردد العبارة، وكانت المدينة بدورها قد شرعت تلهث عند منتصف النهار، وخروج العمال من المعامل، وانتشار لغة المنشور في الأسواق وبلوغ المقصود. وبدأ الزحف، متى، كيف حدث ذلك؟ لا أحد يعلم، ولكن المؤكد أنه بدأ من تلك الأحياء الخلفية؛ حيث كانت فرق صغيرة من التلاميذ والطلاب توزع المناشير، وتصرخ وتحرّض، وهي لا تستطيع أن تفهم أن الأمر يمكن أن يكون أكثر من رفض قرار ما ... قرار مجحف يمس هؤلاء الساكتين والمسكوت عليهم في سكينة. ولكن الزحف بدأ، وعند الظهيرة صهرت سماء المدينة، صهدت وجوهها وعروقها، صهد شبيها وشبابها. لم يَرِ أحد السيرة حتى الآن، وهذا الراوي، الذي هو أنا، (ومن أكون أنا؟) إنما يحاول استرجاع نثار من ذكريات أمست اليوم بعيدة. لعلها في ذاكرة الكثيرين حلم من الماضي وقد قفز إلى المستقبل، بعد أن أحكم الحصار.

اندفع وسط مجموعة من العمال ظلوا بملابسهم الزرق، وبدأ يصرخ معهم بكلمات لم تكن مفهومة في البداية، ثم تنزل من الرأس إلى الحنجرة، ويتفصّد معها على الجبين عرق ساخن، ثم تحولت الكلمات، كلمة كلمة، إلى عبارات طويلة بعض الشيء، أخذت تحمل معاني شتى؛ تلك المعاني المخيفة؛ تلك الكلمات الكبيرة التي تثير الدهشة وتستفز الأعضاء؛ الكلمات التي يقال إن للحيطان آذانًا تسمعها.

ولكن الزحف بدأ، وحدث الذي حدث فكأنها القيامة أو تلك الأحلام التي كانت ترتاد حمدان حين يتحول العالم كله في دخيلته إلى كتلة حزن شفافة ومُشعّة.

سيتذكر مصطفى وقاسم معه ذلك اليوم الذي كان فيه الشجر يحترق بعد أن وُضع لتظليل الأرصفة ... «الشجر يحترق، هذه أعظم قصيدة لأعظم شاعر»، كان حمدان يردد في داخله، وهو يوغل بصوته في الفضاء الذي أصبح كله مدويًا بالأصوات. ولأعمدة الإنارة سيتذكّران كيف كانت الحبال تلتف بها كما لو بأعناق مشرّبة وتجذبها، تجذبها، فتحنني ثم تنحني، وقد تكاثفت الأيدي، كل الأيدي تجرّها، لتسقط أخيرًا.

ومن مكان وزمان ما، يجيئون ويتدافعون، لا يعرف الواحد منهم نفسه إلا في الذي لصقه، وكان الإسفلت قد نبش ليتردّد نشيدًا ينغم الكلمات المخيفة، وجاءوا من كل فج عميق، تقول الحكاية، كيف؟ مَنْ أعلمهم؟ ولكنهم جاءوا، وبدعوا يُللون ويقولون أشياء كثيرة:

مجموعة (١):

- يُنبش إسفلت جميع الشوارع، فهي ليست لنا.
- تُهدم جميع السقوف والسيارات لنصبح جميعاً في العراء.
- تُفتَح جميع البطون وتُراقب جميع الأمعاء.
- نحكم عليهم أن يشموا، ولو مرة واحدة، رائحة زبلنا وبُرازنا.

مجموعة (٢):

- نحفر المتاريس حتى تظهر القسمة الحقيقية للمدينة.
- تبادل المراحض بيننا وبينهم.
- نُخضعهم لتمرينات في مسح الأحذية والشحاذة، والوقوف في طوابير «التعاون الوطني» لأخذ «المعاونة».

مجموعة (٢٠):

- مظاهرة + مظاهرة = جثث - دم - غزير - هراوات - سيارات إسعاف - كعوب - بنادق = سقوط المدينة.

المجموعات من ١ إلى الامتداد ...:

- تسقط المدينة - الثيران، البغال، هم، هم، هم، تسقط المدينة، نحيا نحن، نحيا العصفير.

لكن المدينة لم تخرج كلها إلا حين بدأت المطاردة، وتحركت سيارات وشاحنات، فاننتفض المنتفض وغير المنتفض، إلا حين بدأ الأفق يتغطى بلون رصاصي، وظهرت مخلوقات لم تُر من قبل وأعلن الحصاد، وكانوا يرتدون بذلات لم يُر لونها من قبل، وأعلن الحصار، واشتعل الجو برائحة «الحرقائية». لا، هذه المرة لم يكن لعب أطفال ولا موسم عاشوراء، ولكنها الظهيرة: كلما تقدمت احترمت، لا ولم تكن الفنتازيا التي يحضرها قواد القبائل وولاة الأقاليم للعلف وتبخير الأولياء والأضرحة، وإنما المهرجان المؤجل، وقد جاء أوانه، وها أوان حمدان يحيا وغضاضته تسري في الصوت والحركة، وتورق في الموكب.

المدينة أشكال هندسية، علب متداخلة، محطات الوقود/محطات القطار/مراكز البريد - نار - الشوارع/المتاريس/الأسوار - حفر - الخادمت/العاهرات القاصرات/عمال

بلدية الأزيلال/التلاميذ/الدراري - صراخ حتى الأحشاء - عساكر/رجال شرطة/آخرون كالجان/طلقات منتشرة - الإصغار - الساعة الخامسة - السادسة - الساعات الموالية لنشرة الأخبار - طق، طق طق طق/وجوه شاحبة/ملايح مُربَّدة/لا بأس في السواعد/لا/لا/لا ثم آه - حلق السادة من عل/هرب السادة إلى عل/خرج العبيد من خوفهم/نبتت للمجزرة أعضاء فيلية وديناصورية وراحت تركض في الشوارع وتترنح في الساحات - ومن مكانٍ وزمنٍ ما، جاءوا وسوف يجيئون تباغاً حاملين رءوسهم على أكفهم، متداعين لحضرة الموت والشجر المحترق - تلك هي القصيدة.

والذي حدث بعد هذا لا يمكن أن أنساه، ولا يمكن أن أصفه، وإن فعلت فإنني أخشى ألا يصل إليكم أو ألا أصل إليكم أنا، وأنا حريص على وصولنا معاً حتى نتعرف معاً، كيف ستنظرون وتبصرون، ولا يهم بعد إن عانيتم أم لم تعانوا! سيان لدي؛ فأنا أتحدث الآن من داخل كيس، ولعلي هنا أستطيع أن أتذكر كيف حدث ذلك؛ فقد بقينا نحن نطوف والنار مشتعلة في رءوسنا بعد أن انطلقت صافرات الإنذار وشدهنا وأشهد علينا، وبدأنا نمرق بين الزوايا دون أن تختبئ تماماً، كما كنا نريد أن يستمر ذلك الشيء وألا يتوقف؛ فمن أين لنا ثانية بالمدن التي تحن والأحلام وقد رفعت عنها الأحكام العرفية!

حضرات السادة، حضرات المستمعين والمتفرجين، إني أتكلم من داخل كيس؛ أي من جوفي، أو من بئر، أو من المجهول، أو ربما أن البحر ابتلعني ولم أعقل بعد أن تهاطلت الزخات واختلطت الزغاريد باللولوات.

هل نُفخ في الصور؟ صاروا يُلقون علينا الأكياس من فوق، وصرنا نتخارق معها وداخلها، والفقهاء، وقد عبثوا يصخبون بأصوات نائحة: «يا لطيف، يا لطيف، نسألك اللطف في ما جرت به المقادير»، وكانت آفاق السماء مسدودة بفوهات كالخراطيم، وابتلعت الأرض الناس ابتلاعاً، هل نُفخ في الصور؟ إنني موقن أن حمدان الذي كُنْتُه قد أصبح كائنًا آخر تماماً منذ ذلك الوقت. منذ وقت الكيس واحتراق الشجر، وأن لا شيء قادر على إطفاء النار التي اندلعت بداخلي منذئذٍ، وأشهد أن بيننا البحر وجثثاً شُرحت وثُقبَت وألقي بها إلى الذئاب، وأخرى لُفَّت في أكياس واختنقت داخلها، وأنا أتحدث قبيل الاختناق ... لتأت إلي طلعك البهية. وقد طويت الأرض طياً وتفتتت الأحياء الخلفية تفتتاً، وانهال الضرب الضرب الضرب، عرس كبير اليوم، قلت، بالشرائح الآدمية المقددة وشطائر من أجساد التلاميذ الغضة، وخيام لمواسم القواد الفولكلورية من البدلات الزرق للرجال الذين اختفوا، ولكم النساء من مختلف الأعمار مبعثرات خلف الطاقات والأسوار، وكان قد صدر قرار

بمنع البكاء ووجوب الضحك وشمول الفرح وارتفاع الغم وانقشاع الغيم، متبادلاً القهقهة لا الضحك مع مصطفى وقاسم، مُجلِّلين بالندوب كنا وأصبحنا واستمررنا، والدار البيضاء، وهي اليوم مضطجعة أو مُكبَّلة أو خائفة في سريرها إنما هي ذكرى موعلة في البعد؛ تلك المغموسة في دم الماضي ودم الذين فاتوا، وفي صهيلى المستمر من يومها. وعسير عليّ أن أعقل كيف تواصلت الحكاية وكيف يخوض البئر في آبار، والمجنون بالذكرى في زمن الجنون ... ها، اركض حمدان، هذا جنونك وزمنك، وإنك الآيات المنتشرات.

اعتبروا أنفسهم غانمين حين خرجوا سالمين من التجربة أو المحنة الأولى، كما أصبحوا يسمونها فيما بعد. ولم يكن لحمدان ومصطفى وقاسم من عزاء في الشهور التي تعاقبت بركود ودون طعم سوى الانكباب على المحاضرات، وقراءة الكتب بصمت؛ فقد خمد الجدل في نفوسهم، وتبعثرت الآمال، والدراسة عندهم، على كلٍّ، همُّ ينبغي أن ينتهوا منه بصورة أو بأخرى، وهم بعدُ في حاجة لأن يضمنوا دخلاً قاراً.

غير أن الشهادة لم تكن سوى المدخل الأول لعالم جديد من المتاعب، ثم توالدات لا تنتهي بين محور الحلم ومحيط الكابوس، وسيجري العمر مديداً بين هذين التقاطعين:

– هل يكفي أن نأخذ الشهادة لنعمل؟!

تساءل حمدان ساخراً، وتابع مصطفى:

– وما الفرق أن نعمل بالشهادة أو بدونها؟

وقهقه قاسم قبل أن يتحول الأمر إلى جد، وأضاف:

– لكن لماذا العمل ما دام كل شيء محسوباً من قبل ومن بعد؟

وحمل كأسه المترعة وهو يدعو رفيقيه إلى التناخب، ثم سكب في جوفه في جرعة واحدة.

لم يقتنع حمدان ولا مصطفى بحركة رفيقهما، وكانت الكأس عند «النصراني»، مرة أخرى، سكينه مؤقتة.

ولم يكن هناك مفر من هذا المكان؛ فبعد دروس الأدب والتاريخ والجغرافيا المملة، والتي كانوا يلقونها بحماس أو تشنُّج شأن بداية العهد بالخيريين، يكون اللجوء إلى حانة «الممر» ملاذاً لا مناص منه، بل إنه تحوّل إلى شيء مثل الواجب اليومي. وهنا بدأت تُعقد الجلسات الطوال التي سمّوها بجلسات «ذهاب العقل»، والتي غالباً ما كان يرأسها وينهيها من لقّبوه بـ «مفسد الأجيال». ولم يكن هذا المفسد العظيم سوى شخص سلخ أكثر من نصف عمره في التدريس، واكتسب موهبة تذوّق ألوان الطعام والإغراق في الشراب، والذي

كانت له فيه زعامة وحكايات تُروى، وصار لا بد لكل من حضر المكان أن يتتلمذ عليه ويقع تحت طائلة بعض نزواته.

ورغم أنهم كانوا يؤمون الحانة تقريبا كل مساء، إلا أن شربهم كان قليلا، ثم ما لبثوا، وبإيقاع تدريجي، أن أصبحوا زبناء مهمين.

منذ البداية لم يتوقف حمدان عن طرح السؤال عن علاقته بالشرب، ثم انكباه المتوالي عليه فيما بعد. وفي مرحلة أولى، كان يميل إلى البحث عن منطق ما لكل تصرفاته، وبالنسبة إليه فإن يأس التجربة وبلداً يتبحر في الفراغ، وانعدام كل المنافذ التي تتفتح فيها النفس، لا يمكن أن يؤدي إلا إلى العكوف على الصلاة والإكثار من زيارة الأضرحة، وهذه أشياء يملكها، تماماً، أو إلى معاقرة الخمر، وهو شيء لم يعد عنه بعدُ بديل، ولم يكن يخلو، عنده، من سلوان.

وإذن، فقد ظل يرحل رحلاته المسائية، ويقول لنفسه اغرفي واغرفي، واهتاجي في هذه الكئوس، صُبي فيها الغضب ومنها تنفسي. لم يكن السابقون يفعلون خيراً من هذا، وها أنت حين أردت صنع نفسك واقتناص لحظة الفرح البعيدة، حين خرجت المدينة من قمم الخوف، رأيتهم بعينيك يطاردون روحها، ويمسكون عنيفاً برقبتها ويعيدونها مجدداً إلى القمم. لقد حددوا هم الطرقات، ووضعوا علامات المرور ... وفصول السنة تسير بمشيئتهم، ولعلمهم يسرون اتجاه الرياح، وليس لأحد أن يتحرك؛ أن يتزحزح من مكانه، إلا بعد الترخيص له منهم. يسمع الطنين كثيراً، الطنين الطنين من مكبراتهم الصوتية الموثقة؛ حيث تُرى ولا تُرى، وهي تمارس وظيفة توجيه الأصوات نحو الصوت الواحد، الذي ينبغي أن يبقى بمفرده، وبمفرده عليه أن يتسامى، سبحانه، سبحانه. أما أصواتنا نحن ... أما كل الآمال الصغيرة والكبيرة التي غديناها طويلاً، كل هذا آخذ في التلاشي، وعليه أن يُكَبَّتْ، ويتوارى بعيداً وعميقاً في قرارة الكأس هاته، في هذه القطرات المرة-العذبة، في هذا ...، وكان قد وصل إلى اللحظة التي تختلط لديه فيها، عادةً، مشاعر الحنق بالتفتُّح النفسي. في لحظة واحدة يكون وكأنه يمسك سر العالم في قبضته، وعلى هذا السر أن يستغرقه بأكمله، ويمدّد أطرافه طويلاً وعرضاً، وينقلب العالم الخارجي بكائناته وأشياءه الصلبة والرخوة ... ينقلب كتلة يطوح بها وهناك، هذا المستفز الذي يبحث عن نفسه، ويبحث عن وجود، ولا تسعفه هذه البشرية (أي بشرية؟!).

وهل تستمر أخلاق المدينة ... أخلاقهم على حالها هكذا بين الرقاد والارتقاء، ومساءلة اليأس والحيرة ... إن «مفسد الأجيال» موجود في ركنه ذاك، الليلة، ب «الممر»، يفرك يديه

ببعضهما ويحاول أن يغرف هواء قلب الدخان، فيما قاسم ومصطفى يتناحran من وراء الواجهة الزجاجية وكأنهما يُدبران لتبديل نظام قوانين الطبيعة ... ثم بدءوا يتوافدون تبعاً، سكان هذا المعمور المغلق، الذين تُوحّد بينهم رابطة خيبة حميمة ... خيبة نارية تشتعل في جوفهم كل ليلة ولا تنطفئ إلا باحترق متواصل ... يتوافدون، وهذه الخيبة تتنمّل إما شعراً عصياً أو تأملات أو قصصاً تريد أن تكون، أف للإنسان، وللمجتمع، ولأنفسهم هذه الخمرة الرخيصة:

- ستقتلنا.

- لا، سنقتل آباءها وأجدادها!

- ولكننا نتأكل وهي تغرقنا كل ليلة في حزن ممض لا قبل لنا به.

- وهم ماذا يفعلون بنا؟ أليس الحزن هو شريعتهم المسلطة علينا؟!

- لكننا نحن الذين نفضل أن نقتات بهذا الحزن اليومي لنعوّض عجزنا المزمّن عن

فعل شيء حقيقي.

- كأن نطلب قنينة جديدة، وننتهي منها بسرعة كأن نسكر الليلة، مثلاً، سكرة خرافية، وننتقل بعدها في الشوارع صارخين، محتجين، مُقَدِّمين مطالبنا للعالم، مثلاً، باستيراد وقف الأفكار أو بجعلنا نستمتع بمتعة الارتماء على الإسفلت، أو بأن نكسر زجاج هذه السيارات الرابضة كالجثث.

«وفي زمن ما، قلتُ - أنا حمدان - عندي نبوءة، وعندي أن الكلام ينبغي أن ينقلب إلى ضده، والطرق المديدة إلى مطبات ومنعرجات، وأن يصبح مصطفى إله الجنس إلهاً لكل الصبوات، وأن يُعمّق التيار في مده وجوفه ليبلغنا، تنبش المقابر كلها، قشرة الأرض، يمتد النبش حتى ليصل أحشاءها فيمشي دمي في نسغها، لحد الآن لم نتصاهر مع الطبقات التحتية، ويستهوينا، بعد، أن نخبط فوق التيار، ونمنع غرقاً في سؤال الحيرة ... انتظروا، سأعلمكم جميعاً بأوان الرحيل؛ فأنا أتراوح بين موج للذكرى عاتٍ، وأتعايش حتى الساعة في ملح الرغبة، وعندي وعيد كثير وبعض النذر دونها ألف باب، ولا بد لجوهر التعاليم أن يأتي عندما أقرّر ألا أصحو أبداً، وعندما أكنس الأسماء المقررة في البرامج الدراسية، وأن أدفع هذا الحشد المتجمّع في «الممر» والحشود الأخرى العالقة بالأسواق والشجر إلى أن نهجر مدينتهم ونبني مدينتنا، ونصبح بملامح شوكية، وأن نرفع شعار مسخ خلاق لما ممسوخ، وعلى النبوءات الفظيعة، الليل المدلهم، قوانينه الجلد والسحل، قتل متاهات الذاكرة، وقف التطابق، رصد الغد على قبضة الانصهار، الشيء وضده، على المستحيل أن يدركني».

وفي هذه الليلة، وكل ليلة على وجه التقريب، ها هم «ناس الغيوان» ينوحون على الرجال الذين ضاعوا، ويقيمون مآتم غنائية، ويقولون إنهم يحيون التراث (أي تراث). وتبدأ المشاركة بالنقر على الطاولات، يرتفع النقر تدريجياً ليتخذ إيقاعاً منسجماً مع الدف من وراء «الجوبوكس»، فيما يبدأ تجاوب التصفيق بين أركان البار، ويكون «الحمدوشي» هو الذي يضبط النغمة حتى لا تفلت، وإن عليها ألا تفلت، خاصة إذا بدأت بعض السجائر الملفوفة تنتقل بين الشفاه وتؤخذ منها رشقات عميقة، عميقة، وإن عليها ألا تفلت، وعندئذ يُجن جنون «النصراني» الذي إذ لا يحار صنيعاً لا يتوقف عن تحريك عينيه في كافة الاتجاهات، والهمهمة بكلمات تشتم المغاربة خاصة، والعرب جميعاً، وتكون الرحلة قد حَقَّقت إحدى أغراضها بإثارة حنقه الذي تحول إلى متعة ليلية، بينما يتواصل توزيع الكئوس وإفراغ الأحشاء، ثم المزيد من الكئوس والحمدوشي يدق على صدره بيديه ... قاسم ومصطفى ينظران زاهلين، وسط حلقات الدخان، إلى الفراغ العميق، وكأبة الليل تكون قد انعقدت كثمار ناضجة، يحس الجميع بأوان الاقتطاف. حينئذ يخرج هو من داخله ليدخل في الخارج، وكأنما لينهي مرحلة أخرى احترقت من رحلة الخيبة، يردد عبارته الشهيرة:

«كأسك حان موعد الإغلاق ...

كأسك لن تسعفها الأشواق.»

وفي هذه الليلة أيضاً، كان السؤال عنده قد وصل إلى منتهاه، وكانت إحدى تلك الليالي المصهدة، قريباً من الصيف، الأجساد ترشح وتطلب مزيداً من الارتواء، ولم يستطع أو يعرف ماذا يمكن أن يفعل بنفسه، بعد أن التصق جسمه بجسمها، وشعر وكأن أصابعه تغوص في كتلة مطاطية، عبثاً أن ينجو من هذا القرف اللعين، وبعد أن نقد تلك المرأة العجوز التي تقضي بقية عمرها في تربية هذا الحقل من الفتيات الداجنة، بدأ القرف يرشح من مسامه ويسيل من مناخيره، وها هي ذي الدار البيضاء التي وضع لها في ذهنه قاموساً من الرموز يبدأ من المنجل والجرافة، وينتهي إلى النمل والبراغيث، تكبر تحت عينيه وبين يديه، وتنتفخ كتلة صماء من المطاط، وهو يريد أن يصطدم بهذه الكتلة ويصدمها ... يريد الخروج من الدوامة للدخول في الدوامة الجهنمية التي تغلي في جوف هذه المدينة وما جاورها من الأصقاع الناعسة ... يصطدم بماذا؟ ويصدم ماذا ومن؟ سقط بعض الحلم، بعض الحقيقة. لقد وصل السؤال إلى منتهاه ... هكذا اشتعلت الفكرة في قلبه، وهو لا بد أن يحقق الاختيار، وكأس «الممر» لن تسعف أحداً، ومع المطاط كان يعرض على لازمته المعتادة:

- لا بد أن تفعل شيئاً ... أي شيء ... أن نفعل.

جواب آفاق كنت أعرفه، يضيق به المكان قليلاً أو كثيراً؛ إذ يستقر به، ولم تكن يداه لتتوقفا عن الحركة ولا جسده عن الارتعاش ... كلماته قوية تسمعها من بعيد وأنت في الطريق إليه أو هو يقصدك، وهو لا يعرف كيف انحسر في الدوامة، ولكنه يميل إلى تحديد ذلك بيوم خروجه من تلك القرية الرمادية جنوب مدينة مراكش؛ حين شحت الأرض وكثر الظل، ولم يعد فيها إماكن جوار للحاكم والمحكوم. ومن يومها وهو يطوف بعينيه وقدميه ضارباً في أنحاء لا حصر لها من البلاد، دون أن يعرف كيف يستقر به المقام في واحد منها، أو كيف يستطيع هو أن يصبح مثل الآخرين ببيت وزوجة وأولاد، كما تمتّ عليه أمه دائماً، وكما لم يتمنّ لنفسه أبداً؛ لأن المسافة بينه وبين تحقيق هذه الأمنية، كانت تكبر أمام عينيه يوماً إثر آخر، وبقدر ما يلاحقها بقدر ما تهرب، ولا ترجع إليه إلا طيفاً ملوناً في اللحظات القليلة التي يخلو فيها إلى أحلام ناعسة. وأي أحلام هذه التي تتكاثر فيها الآمال وتتداخل الذكريات والأشواق متلاحقة دون أن تجد لها طريقاً واحدة تنسرب فيها إلا تلك الطريق التي وجد نفسه يقطع فيها الخطوة الأولى، وكان دمه يفور، وذقنه تنبت فيها تلك الشعيرات الشوكية، والجميع لا يعرف فيه إلا صاحب النظرات الحادة النافذة؟! في ساحة تلك البلدة الرمادية، بذلك الجنوب، حين جاءت شرطة ما أمام حانوت والده لحجز محتوياتها، لعدم تسديد ضرائب متخلفة، وكانت الحانوت شبه فارغة إلا من بعض اللعب المبعثرة بين سكر وصابون وأشياء تافهة ... كان أبوه بالداخل، وهو لصق الباب، وحر ملتهب وأشخاص تحلقوا من البعد لمشاهدة هذه الصورة دون اهتمام كبير لشدة ما ألفوها، ولا يتذكر جيداً كيف تطور الموقف الصعب ذاك، ولكن صورتين انطبعتا في ذهنه، منذ ذاك، وغلفتا عينيه وجسده، وما زالتا تفعلان: حين أرادوا القفز فوق الحاجز الخشبي الوطني لتنفيذ مهمتهم، تصالب في المدخل قافزاً، وتشنّجت عضلاته، وأي دم هذا الذي سرى في عروقه، وأي احتداد وتشنّج؟! تدافع المشاهدون المتبعثرون أماماً وسمع غليان أنفاس ... تبديل التهديد بالنظرات، وكانوا جمعاً، وكان فرداً واحداً، وكان الآخرون، على التفاهم، لا مبالين، مبالين إلى السلامة ... ترحلوا في مكانهم فتحفّز، استفزوه مهددين فما تراجع بل ازداد تصلباً ... كانت النظرات هي الصوت الوحيد المتكلم في المكان، وتلاها صوت انقضاض ... استلّوا عصيهم القصيرة، وبید واحدة جذبوه إليهم، وبطحوه أرضاً، وبدأ الضرب على غير هدئ، وفي كل أطراف جسمه. وبعد أن نفذوا مهمتهم تركوه رابضاً، مكوّمًا على نفسه هناك، مبتلاً بدمه وعيناه تبهلقان في الظلام.

الصورتان تقبعان الآن في قلبه وخلفهما صوت البلدة الرمادية، وبدأ طوافه الذي لا ينتهي، والذي جعل فيه الحزب ملته الأولى والأخيرة. ولأن مسئوليهم عرفوا فيه هذا الهوى المتشجج، لم يكفوا عن إرساله إلى المناطق الصعبة هناك لتنظيم الخلايا، والدفع إلى الحركة في وجه إقطاعي الأرض، والولاة الصغار المتغطرسين، وكان الخدم الصغار لهؤلاء أيضًا يطاردونه حيثما حل، وظل جواب الآفاق الذي أراد.

في هذه السنة التي جاء فيها، كنت قد افترقته طويلاً، وكانت ظلال المحنة بادية، وصوته يحدث رجح الصدى، ما يزال في تلك الاجتماعات التي شرعنا نناقش فيها، نحن «المثقفين»، الأفكار والنظريات من أجل التحول والحركة، وما زال صوته، هو نفسه، يقرع طارداً بعيداً تلك التحليلات المائعة التي تغرق في مضغ الكلمات والمصطلحات ليدفع نحو أقرب السبل وأصعبها، وليوقف ضجيجنا نحن «المثقفين».

حين فتحت الباب، إثر طرق متعاقب، وفي وقت متقدم من الليل، غمرتني قامته، ودلف مارقاً باتجاه الداخل قبل أن يقول كلمة واحدة. وإذ تقابل وجهانا، وزال عنه الامتقاع الخفيف بعد نفثات من الدخان، أحسست أن المحنة قد حلت ولا ريب ... ولم أكن أحتاج لحضوره في هذه الساعة غير الموقوتة من الليل لأعرف ذلك، ولكن وقوعه في مركز الدائرة جعلني أتحقق ... وها هو قد جاء طارق الليل هذا، متدافع الخطوات.

لم أكن بحاجة إلى كلمة واحدة منه لأعرف أنهم ... قال: إنهم يتعقبونني منذ وقت طويل، ولكنهم، الآن، قرروا أن أقع؛ ولذا ...

لم أتركه يتم عبارته، وسألته عن باقي الرفاق الذين يعملون معه في الجنوب، فأجاب أن الوضع هو نفسه، وأن الخناق اشتد عليهم مؤخراً، ولكنهم رغم كل شيء صامدون. واستغرقتني نظراته المستفسرة والمتعبة:

– وكيف الحال هنا؟ قال.

فانفتحت أمامي الطريق وانغلقت في آن، واسترجعت في لحظة جلسات العريضة والتهويمات، ونومنا في الطرقات، وبحثنا الحالم عن ملكوت في الأرض، والضجر، الضجر الشديد الذي تلبسنا حتى بات مصيراً. لم أكن أبداً في عيني ذلك المناضل النموذجي، ولا كان يعرف، بالتفصيل، كيف استبدلت جلسات المسائية عند «النصراني» بجلسات أخرى وجدتني أنقاد إليها وأبحث أو أحقق فيها هويتي، وإن كنت واثقاً بأنها لم تكن ضائعة تماماً. إن الحلم المتمرد هوية هو الآخر ... كنت أقول لنفسي دائماً، ولكن الأمر لم يكن هيئاً على أي حال: أن تنعق من الكلمات ورحاب الأمان، وتشعل هموم المساء صواعق في وضوح النهار، تلك هي المعضلة، وذلك هو الامتحان.

في البداية، جاء هو لا ليخاطبني؛ إذ لم أكن في حاجة إلى الإقناع، ولكن إلى الإحساس بصدق مَنْ سَأَعْمَلُ بجانبهم. قلت الصدق؛ فقد خفت دائماً من المفوهين الذين يحصدون العالم بخطب رنانة ولا يفعلون شيئاً ... كان يراني ويتدرج صوته في دمي فلا أقفل إلا على الانطلاق ... ولم أكن لأفهم وحدي حس انتقالي؛ لأن الانتقال لا يكون إلا جماعياً ... هل أقول إن الفيض جاء دفعة واحدة، أم أننا بعد أن تلابثنا، وبعد أن صدئ اعتقال الأعضاء لم يكن لنا أن نتحرر في غير إحداث الشرخ والمواجهة؟ وماذا لو قلت إن أحداً لا يملك أن يختار ما هو عليه أو ما يمكن أن ينصرف إليه في بلادٍ كبلادنا؟ إن الأشياء هنا مقززة، تُقَرِّزُكَ حتى لا يسعك إلا أن تؤمن بالسحق أو تنهار.

وكان من تعاقب نظراته يتسلسل تاريخي ... البطاقة الأولى كان هو من حملها إليّ، وما زالت عبارته التي قالها يومذاك ترنُّ: إذا عرفت كيف تبدأ فلن تترك هذا الدرب أبداً. بدأنا نغشى سويةً بيوتاً وجلسات ... كان هو يعرف مسبقاً ما يجري وما سيقال، وكان عليّ أنا أن أنسى ثقافة الكتب ... أن أتعلّم مما حولي ... أن أتعلّم لغة الناس البسطاء، وأعرف كيف أحاطبهم ... أن أعرف الواقع؛ لأنهم، كما ذكروا لي وقتها، كنت أعيش في البرج العاجي، وأردت فعلاً أن أتبين هذا الواقع على حقيقته ... ولكن تلك حكاية أخرى. وتدافعت صوتاً، موجاً، بحرّاً لجباً، بعد أن استمعت طويلاً؛ إذ كنت أحس أن عليّ أن أنتظف من تراكم تلك الأفكار وتلك النظريات بعد أن وضعت قلمي في الطريق التي بحثت عنها طويلاً، وما هي في جاءت، فلتكن تبجّجاً ومنشداً ونشيداً المسائي المتجدد. هو الحضور الحاد الذي يريد أن يخرج من احتداد الغياب؛ حيث تجمّع الاختفاء، وارتدّت الأشياء ... انكفأت الهواجس على بعضها، وصار هو يضرب في الأوهام، أو ما يرتئي له كذلك؛ إذ لا أحد يرحم هذا الاستغراق الذاتي العذب، الذي هو اعتصار التلاحق اليومي، وامتلاء الرئة بالاختناق المتوالي ... وسيكون عليّ أن أعرف، وأن أتحنّس أعضائي وتنفسي وركضي المستमित؛ إذ أريد أن أعرف بأن لا يبقى لتجمّع الوجوه مجرد ظل ساكن، مسترخٍ على ظلي، وبأن لا تظل الخطوات الموقعة على الطرقات رنيناً مكروراً لزمناً لا يريد أن يتغيّر، ولكن أن أسمع فيها النبض الذي أمعن في الهروب ... وما هو ذا الآن واقع، شبه واقع بين السمع والبصر ... تذكرني أن أرضي سماء ما انغلقت يوماً، مفتاحها الذي ارتكن في عينيك لدهر، لا يسد عليّ الآفاق، ولكن يدفعني أفقاً جديداً، فيزداد السؤال انغراساً إزاء فضائي المركب، وأستشعر الأرض أراضٍ، ووجهك كواكب تتصادم في مغامرات الضوء، ولنا أن نفتح نفقاً، ثم نخرج من الخندق لنخرق سوراً ... وهل نقول متباليين: ها جاء الصباح؟!

ليكن البحث هو هذا العجين الذي لا يتشكّل وقد قُدّ من هواء وضباب وأرخبيل نتوءات، ثم انصعاقنا المتواصل بالدهشة اللامرئية، واعطني هؤلاء الرجال ... أعطنيهم زاحفين، متقمّصين السحب متسنّمين صهوات أوهامنا الراجفة. وسأُسكِت كل انتصاب للاستحالة، وأقتلع من جوف أعضائي النافرة عصب التوالد المزمّن والمتهدّل، لجِبلة تتضخّم وترفض أن ترى شيئاً آخر غير تضخّمها، لكن هل لأننا محكوم علينا بالمستحيل علينا أن نموت؟ كلا، ستظل هذه الصولة الغادقة مكنونة في عرينها، ويكون عليّ أن أخرج من أحشائي، وجلدي الناشز يتلبّسني، وأن أطلع من زحمة الضرورة لنغزو الفضاء، وهو يرتمي أمام البصر قطعاً قطعاً، أكوام أعضاء انبعثت من زمن غير معلوم، ثم على لهب الحناجر أفرش صحتي، وأمتد ... أمتد يا أمتد ... ليس على القيامة أن تقوم، فهي قائمة عندئذ!

هذه المدينة، ماذا أصلبها؟ أم ماذا أصابنا نحن، بالأحرى؟ أم ما الذي يجعلنا نتداخل وتتداخل فينا؟ إننا ابتلينا بخلق المدن وتدمير المدن وشجّ ذاكرة ما هو ساكن ... وهذا السكون الذي يعمر الشوارع، أردنا له أن يتزحزح ... أن يتراجع لكي تلمس الحركة، ولو بعض الشفاه، ولنخرج مما استحوذ على الأيام العجاف، ندخل مجدداً في المستحيل الأكبر. صرنا نلتقي نهاراً وليلاً، وكانوا هم الذين يحملون عبء ماضٍ صلب يحتفلون، في نظراتهم وكلماتهم، بهذا الفرد الغر، ربما إذ ينضم إلى رحلة البحث عن المستحيل، وكان الجميع قد أقرّ أنّ قد حان الوقت لنخرج من دوامة التشبّث، فنضم الكلمات المتفرقة، والتي كثيراً ما تقود إلى معنى واحد، ونعمل على تحويلها إلى صخر ... شيء يلمس ويُتأكّد ذات يوم بالمعاينة، فعل اللحظة والساعات الطارقة، وتراجع الأصداء المكتومة، ولكنها تظل دائماً هي الكلمات واللحظات مشحونة بما نريد أن نفعل، وأي شيء سنفعل؟ وهل سيقود الفعل نفسه إلى ذاته أم إلى ضده؟

في الجلسات الطويلة التي كنا ننتظم فيها ساعات بلا حصر، والتي لم أكن أقدر على الاستماع فيها طويلاً، كان الحلم هو ما يجمعنا ... هو ما يُوحد الرؤيا، ولشد ما كنت أتعب من ملاحقة بعضهم؛ إذ يغرقون في تحليلات لا أول لها ولا آخر، فتتضخّم في أفواههم الكلمات، وتنتفخ العبارات انتفاخاً مهولاً، فيما جو الجلسة منعقد بدخان السجائر التي تحترق بلا حساب، ولم تكن وحدها ما يحترق؛ فقد كنا نحترق جميعاً بتفاوت، وراء ما نريده ولا نطاله. ولم يكن الضجر هو ما يتسرّب إلى نفسي من ازدحام العالم بالهدر السميك، ولكن أكثر من أي شيء آخر، من الفقر المدقع في الخيال عندنا — وكنت أسمح لنفسي أن أشق لي في عباب الدخان والتقاطع اللفظي والاصطلاحي عباباً أنفخ فيه من

روحي؛ حتى لا أتيه وأبصمه بدم سينزُّ كي نتلاقح على مدى المسافة الآتية — فاشرقي أنت هناك، واهتزي خفيةً وعلناً، موجاً صاخباً يرتمي، عند عطفك أكون، بين أن تضمّي نفسك أو تستجمعيّني أكون، قد شققت في درب الرحيل رحيلاً، وتسامعوا بصولتي قبل أن تندكّ الأرض التي وطئت جسدي، قبل ميعاد الخروج، ثم نهّل إثر انتهاء كل جلسة أن «الفتح المبين» أت لا محالة، تتفرق الأجساد والظلال مشتعلةً بالوهم والوعد، متضامنةً من أجل الخارق اللامعتاد. وإذ يمهلنا الليل قليلاً، نستيقظ في الغداة وقد ترمّضت دواخلنا بعطش مجنون، وتكالبت بل تقاطعت فينا الجموع غير المفهومة، وعناوين الجرائد الكاذبة، ونشرات الأخبار الإذاعية، وهي تفرغ علينا، ونحن بالوعتها، ثقل ما تراكم في جوف السادة العظام الحريصين على مستقبل البلاد، العاملين من أجل كشف الغمة عن الأمة، الذين، وقد تحقق، وثم إنجاز، وفي إطار، بما سيعود بالنفع العميم على مختلف طبقات الأمة، وطز ... طز ... ليكون عليّ أن أشيخ وجهي، وأحذو حذو الصراخ المترجل، وقد ساخت الأقدام في تراب عُمر لا نريد أن يفنى هراء. أختلس النظر إلى وجوههم الآن، تتشّمع العين على العين، أحياناً لأحتسي كل هذه الوجوه؛ إذ لعلني ألتقي بها في وضع مختلف تماماً فلا أتعرف على هويتي فيها؛ فهل تكون هويتي قادرة على الانفصال عن هذا الجمع الغامر؟! أحسّني وكأني أُقربُ الجلد إلى الجلد ليحتك ببعضه، وأدفع ظهري قوياً إلى الجدار لأتأكد أنني مستند إليه الآن، في هذه اللحظة، وأننا إذ نحلم في هذه الغرفة بيوم آخر، فالأمر حقيقة، وهذه الوجوه حقيقة، وكل الرءوس المنخورة المدفوعة في الفراغ وهُم يكبر ليزول.

أنا لا يهمني بتاتاً أن أسرد عليكم ما حدث ويحدث، وليس في نيتي أن أطوقكم بحبال التشويق والتسويق، حتى تعترفوا لي بمهارة ما ... المهارات احترُفت، وابتُذلت، ويمكنكم أن تجدوا بغيتكم عند بعض المتمرنين المحدثين الذين يكتبون بقلم كاميرائي، ويجدون متعة خاصة في سرد الوقائع وتلفيق الأحداث بطريقة ميكانيكية ليظهروا «واقعيين» جداً، وليُخفوا عجزهم من عدم امتلاك أي كلمة حقيقية. عندي اختزال لذاكرة الزمن والتزامن، ولكل القهر الذي مضي ويمضي وسيأتي ... وإن لنا أن نعيش في اشتعال خلق المواسم المقبلة.

ليشتعل وهمنا، وليزدّد احتراقاً وهو يشتعل، لتكن لنا من هذه السور آيات، ومن هذه الآيات عبر. يقول «السي محمد»، ثم يتكوّم على جسده الناعس، وحنجرته المبحوحة دوماً من كثرة ما عييت من الصراخ والجدال في التجمعات بلا جدوى. ولكن، ثم إن الأمر يتعلق ب... ونحن سوف نف...، ولا شيء ... يتساقط مطر غزير، وينزل علينا، كما لو كنا في حلم،

نثيث ثلج. إن الطرقات والمداخل تتقاطع في أجسادنا، وهذه الأرض المكفهرّة تسكننا ... نحن الواحد، ونحن الجمع المتفرد، والشيء النظير المتطابق لا يعرفنا، ولا يتماثل الوجه للشفاء ولكن لتجحظ فيه عينان:

كل العيون تتطلع الآن إلى «السي محمد» ... ها من ذلك البلد القفر أتيت، وراءك الأشباح والثعابين، وأرض لا تُسمن ولا تُغني من موت، واستيقظت الآن ... انتفتحت أوداجك، تريد زرع الفتنة لهذا الزمان السلسبيل ... مرchy مرchy! ... كانت عين من بين العيون هي المتكلمة، ثم إن العين تتحوّل يدًا أو هراوة أو قيدًا يلتف على اليدين، أو كمامة تُسكت الصوت، ولكنه النفس العميق هارب عنها ... يصرخ «السي محمد»: «إننا من عمق النفس نخاطبكم أيها الرفاق ... لا تلتفتوا إلى الوراء، ولا تعيروا اهتمامًا إلى القيد، وتحالفوا ضد الصمت. استرخت أجفاني ولم أنم، ثم صحت من صحوي وصرخت: أين الوطن؟

الذين شاهدوا تلك الليلة كانوا قلة، والذين اقتيدوا كانوا من الكثرة بأن استحضروا لهم أعدادًا غفيرة من القوات والعسس، وحملة الهراوات حتى تغطى بهم الأفق، ودمدمت الأرض، ولكن القوم كانوا نيامًا. ويذكر أحد الشهود الذين قُدّر لهم أن يشهدوا من فجوة في حائط، أنهم صنعوا ليلاً أضافوه إلى الليل ليحتجبوا، وأطلقوا في الفضاء روائح وأصواتًا تُنيم كل مؤرق وتُخرس كل سامع، وإنهم لم يُسيجوا الأرض وحدها، بل وطوّقوا السماء بأسلاك ووجوه وتمائم، وحين اكتملت عدّتهم وعديدهم، زحفوا مختلطين بالليل، ومحتجبين بالليل، حاملين الليل إلى ليل الأمة. ولم يكن قد حدث قبل أن أرضًا بأكملها تُطوّق، ومُددًا وشوارع تُسدّ إلا في ذلك العام؛ فقد كانت اللوائح طويلة، والأسماء مقيدة، والعناوين مرصودة، وليس لابن امرأة أن يفلت وإلا فالويل للزاحفين من الغُضبة الربّانية. وليستعد كل زمنه، وكل ليلة؛ فهي قد تمت المواجهة. ولم يكن وقت طويل قد مضى حتى اكتمل النصاب ... منهم من سيق مقيدًا، ومنهم من لُفّ في أكياس، والعشرات معصوبين مركولين كالدواب، والويل لمن تصدّر عنه نائمة واحدة في ليلة واحدة، ثم الحصاد، وكان ثمة زرع كثير وقلوب واجفة وأجسام تغلي والحر يشوي البلاد، وبين أطراف هذه البلاد كلها امتدّت القوافل وتتابع ... خرجت من المدن الكبيرة، والقرى والمدامر ومغارات الجبال، ويقال إنه جرى فليّ الهواء، واختراق الأنابيب والمجاري، وإزاحة ما بين الرمل والماء. وإن بطونًا منتفخة اشتبه فيها قد بُقرت، ومرتفعات قد شُقت. ويذكر هو حين كانوا يغوصون به داخل البحر، ويملحون جسده، ثم يعرضونه على الشمس أنه رأى تجهيزاتهم وأدوات تنقيبهم تحت الماء، والتي تطلّ الأدمي حتى ولو تحوّل قرشًا أو سمكة، بيد أن ما هو أعتى أن تتحول

الأسقف والجدران والأرصفة لخدمتهم، وتعلن صناديق ماسحي الأذى الولاء لهم؛ فما كان النمل ليفلت من تفتيشهم وشكوكهم ... لا يستطيع أحد أن يتذكّر الوقت الذي تم فيه الحصاد، هل كان وقت حصاد حقًا، أم واحدًا من الفصول الأخرى؟ كان الزمن قد تراجع كثيرًا في هذه الأرض، كما أخذت صفاتها تُمحي، ولم يُعد وقتها معلومًا ... وما دام البشر هنا فقد استكانوا «وجُعِلَتْ قَرَّةُ عينهم في الصلاة»، فأسكتوا شكوكهم، وكتّموا أنفاسهم، وواروا عيونهم إلى الخلف، ولم يُعد يعني أحدًا إن كان هذا الذي يتململ أمامه هو حركة أو سكون أم مسخ أو لا هذا ولا ذاك، ثم إن هذا الخلق بات يسعى ليتطابق مع الأشياء الجامدة، ولربما اهتزَّ شيء، حركته ريح، هزه عصف، ولكنه هو يريد أن يظل حيث هو، ولتكن مشيئة الأيام. أي مشيئة؟ لا أحد يعرف، أو يريد أن يعرف. وكان هو يتشبّث بالذكرى حتى لا ينسى ... إنها لا بد أن تسعف من يستطيع أن ينسى ذلك ... إنه الموت الواقف، والرعشات الفاتكة ... أرض هاوية، وتمشي على هواها، مدن تكبر وتتضخّم في حجم الحضارات المنهارة، ومن كل الأجيال التي مرّت تبقى شهادتنا، وهني القرف المدمر، ويواصلون بعدها الاسترخاء والاتكاء و«الصلاة على النبي العدنان»؛ فماذا يمكن أن يفعل بهذا الجسد بعد، وقد نفشوا فيه أشياءهم الكريهة؟! لكن هذه الأشياء نفسها ... الأشياء الحادة هي التي تستدعيه الآن ... تُعلّمه غواية الانسياق، تقول له تعالَ وضمّني إليك من جديد حتى ولو كنت تُعسّأ عليك ... أيها الجسد الجميل، إنك تراجعت وتبيّس فيك الخفق الرشيق، لكن ماضيك حي فيك، لا بل ليس هنا ماضٍ وحاضر ... هنا زمن واحد وديمومة قانونها التداخل، وحكي أمسه هو حكي يومهم، والديك هو الديك، ما زال يعوق، ليكن استحضارًا ساديًا هذا اليوم والأمس اليوم على وتيرة الوقت المعطوب، والخيالات الهاربة والقتل اليومي بالاختناق، ودونه «هو» وحده الشهادة الحية، وهي شهادة عمرنا، بعد أن طوّقوا الشوارع التي كانت تتمرّن على الزغردة، وأطلقوا النفير بقرب خروج النمل وامتناع الطرقات والأشجار والخيال المُطهّمة عن الدواب والسائمة ... و«العزة كل العزة لمولانا!».

«هو» يروي الحكاية

لا أهمية بتاتاً لمن أكون، ولن يفيد تحديد سماتي وتدقيق ملامحي في شيء. وستكون ثرثرة روائية بدون طائل أن أتقدم إليكم في وضع مادي محسوم، أو تحت إشعاع انبهارات من التأنيث الداخلي والخارجي، ثم بعد ذلك الطبعي، وبوابل من الأوصاف المستثيرة للرائء أو التعاطف. إن هذا سيكون نسيجاً ملفقاً، ولن يطلعكم على شيء من حقيقة وضعي، ومن المؤكد أنني لست فرداً معلقاً في الفراغ، ولكني لا أحس بنفسي إلا وهي تعيش كتلتها الخاصة، ولا يكون الواحد إلا في مأساته الدالة، لكن ما لي أحدث عن المأساة؟! إذ لا شيء يتطلب هذا، لا سيما وأن الأشياء على قدر كبير من الترتيب وهي مفككة، والتبعثر وهي مُرتَّبة ... والحس اليومي لمن حولي لا يكون على هواه إلا وهو في الفاجعة. ومن هذه الفاجعة المدوخة ينبع لدى الناس فرح باهر، ينشطون به إلى حلقات وتجمعات ومناسبات ولقاءات واحتضانات وجناز، ثم الأعياد لا تنقطع، والأكل شريعة يومية ليعود الجميع — ودون أي إحساس بالتبدل في المكان أو الزمان أو المشاعر — إلى سالف عهدهم بالاعتقاد أو الرقص أو بإقامة مواسم حول الأضرحة، أو التأمل في خيالات لا تُرى ... أكون معهم وأكون منفصلاً عن شرطهم في آن واحد ... أتقلب على وتيرة هذا اليوم، ثم ما ألبث أن أتباعد فardاً أجنحة الهموم المحببة إليّ وملتصقاً بها، ولكني مواصل إعلان التفسُّخ، وتحذني النار من كل الجهات. سأرسم معكم من الآن خرائط النار، وكيف ابتليت بالذي حدث.

في الصمت الموجع تدافعوا، وانهالت عليّ المدن الكبيرة، وكنت أقترب من موقع الجرح، لولا ذلك الشيء المتراجع ... أي! وكأنما جاءت من السماء صاعقة، فتدافعوا ... ومن كل مكان انهال، ما الذي ينهال هنا؟ التين أم البصل أم لعلها هراوات المخزن؟! لا أحد يعلم، ولا أحد يتذكر من أين جاء الخلق الكئيب المنكمش على خصيتيه وأوجاعه المتراكمة.

دَقَّت جميع الساعات في المدينة الواحدة دَقَّة واحدةً، وكنا اتكأنا جميعاً، أو كدنا، على نزار واحدة، فيما وقفت قواتهم مندهشة أمام الحلم المفرع الذي ارتقى جفن أمر النار والماء.

ولقد رأيت، وفي الذي رأيت احترت، وفي حيرتي اشتعلت أمامي العلامات، وشَعَّت تلك المسافة عن قرب، هي ذي تحملني إلى البعد القريب، يتجمَّعن حولي، يضمُّمن صدورهن، آه من أثدائهن اللائي أرضعنني، ومن حليب أُمي، ثم اخترقي أنتِ صمت جنائتك، واكشفي عن ثديكِ؛ إذ تشمع فيهما خرس ندائي حين تناوب الكسر والركل، ولك أن تشقي بهما، بما اشتهيت، ثم احترق في النشوة البالية نشيداً متصاعداً كالبحور.

دارت السيارة في مكانها دورتين، وانطلقت سريعة بعد أن سُمع زئير للمحرك ... تكون قد قطعت خمسمائة متر لتدخل في منعرجات لم أتمكن من عدّها؛ إذ طالعت مثل حلم بلا نهاية، ثم ما لبثت، عقب ذلك، أن أمسكت نفساً طويلاً، وكان يظهر عندئذٍ أن الطريق سيطول، وقد طال حقاً، ولم نصل إلى شيء بعد. كنا مجموعة محشودة، من الصعب تقدير عددها ... جاء من الخلف من دفعنا وألقى بنا في قعر السيارة كالأكياس، وبعيوننا المعصوبة، لم نكن نرى ما يجري حولنا، وأيدينا الملفوفة إلى خلف والمغلولة لم تكن تسمح لنا بالحركة أو القعود المريح.

كانت تلك المدينة التي فتننتي وفُتنت بها تتراجع ولا يبقى من شوارعها وحلباتها وأضوائها سوى خيط كاب، وصوت خافت، ولكأني بها الآن ذكرى من زمن بعيد ... كنت قد أعلنت طلاقني معها قبل أن يحضروا لحصاد أوهامي، وبعد أن فشلت كل محاولاتي لتهيج الأشجار والساحات، وتفكيك الأسماء المغلقة ... هي تتراجع، وأنا متجه نحو مجهول معلوم لم أفهم الآن منه حتى سوى القيد الذي يغلُّ يدي، ولكنني فهمت منه قبل أن يطوَّقني تطويق المدينة كلها، وقد ظلَّت غافية سنين طويلة. وإذ تفعل، كنت أفتتح وأهتاج وأتلوَّى مع السيارة ... كانت تتثعبن وهي تطوي البطاح وراءها، ويتسلل مع الهواء المكتوم رائحة لشيء كالشيخ ممزوجة مع رائحة عرقنا الذي بدأ يسيل من ضغط الاكتظاظ والارتجاج. ولعله يكون زمن ما بين النهار والليل حين توقَّفنا، وقد عادت السيارة إلى حركة الدوران الدائري واللامُجدي. فُتِح الباب الخلفي، وانهار الواحد منّا على، الآخر متدافعين من أثر الركل، وصوت واحد منهم يُرغي:

«يا لله يا أولاد القحاب.»

وكم كان بؤديّ فعلاً أن أتعرف على أولاد القحاب الآخرين الذين كانوا معي، ولكن قانونهم كان يمنع الكلام والهمس والصمت المتأمل أيضاً، فضلاً عن الفساء، فبقي رفاق

الطريق لوقت طويل مجرد كتل جسدية عليّ أن أسمع تنفّسهم البطيء أو حركتهم نحو المرحاض أو أنينهم طفق يتصاعد فيما بعد ... مكان كالبهو، وكالقبو، وكالدارة الكبيرة؛ حيث وُضِعنا ... كنا شيئاً مكدساً، ولا يعي الواحد بالوجود، إلا وهو يتنفس ... الأكل نفسه ظل ممتنعاً عليّ مدة لا أذكرها، ولم يتهياً لنا إلا بعد أن بدأنا نرشو الحراس المتناوبين الذين كانوا يتنافسون في نهب ما وُجد في جيوبنا صدفةً من نقود ... ولا تهم الشتائم ولا الضرب في المؤخرة والقفا. إن ذلك كان مجرد تسلية. لم يكن للزمن أي معنى، ولا للتعرف عليه طريقة ما دامت العيون معصوبة. وكل محاولة لرفع العصاة ولو بلمّتر واحد مصيرها كارثة قد تؤدي بكل شيء. همس «ع» متسائلاً في ذلك الزمن: أين نحن؟ أجابه الصمت والتنفس المتقطع لمن حوله، ثم ما لبث أن أضاف: لا بدّ أن نرى أين نحن، سأفعل من أجلكم جميعاً ... كنا نحس أنهم وقوف على رءوسنا كالطير هنا، في اللامعلوم في الشوارع الأخرى، تحت أغطينا، في المراحل الخاصة والعمومية، يُطلون من شاشات التلفزيون وأزرار المذياع والكتب المدرسية، ويذوبون مع قطع السكر في فناجين القهوة، ومع المطر ينبتون في حبات القمح، ويسترخون على هلال رمضان طيلة الشهر للإمساك بالمفطرين، وفي كل مناسبة دينية أو وطنية، يتبعثرون في الجُمْل الإنشائية والخبرية المسجوعة والمسحولة، وحينما يطل الجنين، يتسللون إلى حنجرته وأحشائه من ثدي أمه ... وقد حدث مرةً أن هبّت ريح باردة في يوم حارٍّ وبلا توقع، فشرع الناس يعطسون، ومن أنوفهم يتقاذف سيلٌ من الأشكال الهلامية في حجم البشر والفئران والقردة والسحالي والوطايط والبلوط والبطيخ وصومعة حسان وزاوية الشيخ وكيكيت من الأسماء الحسنى التي يُسبّح بها العباد المتقون صباح مساء ابتغاء مرضاة الله ... خرجت هذه الأشكال كلها وبدأت تهزول في غير قصد ... بدأت تلتف بالسيقان والأذرع والآذان، وتصدر عنها أصوات غامضة ... توالى العطس وتكاثر القذف، كانوا كلهم يسكنون الأحشاء، وملفوفين بالأشرطة والميكروفونات وعدسات التصوير، وتتابع شريط للمغرب منذ القرن التاسع عشر، وشريط آخر لكل من سكن مدينة الدار البيضاء منذ وُضع أول حجر أساس لها. كان يتزحزح في مكانه بصعوبة شديدة، أسند وجهه إلى الجدار، وشرع يفرك ثم يفرك، وكأنما تزحزحت العصاة قليلاً من على عينيّه، وقبل أن ينبس بأقل كلمة التفوا به، وبدأ يسمع شيئاً مثل كيس يتقاذف، يتبع ذلك صراخ يُكتم للفور بقذف آخر. بقينا ليومين أو ما خُيّل إلينا أنه كذلك، نسمع أنينه المتقطع، وكانوا قد ربطوه بين حبلين، وتركوه مُدلىً في الفراغ. والحقيقة أنها كانت البداية فقط؛ إذ سرعان ما أصبح الأنين هو النشيد اليومي ... نصحو وننام عليه إن كان

هناك صحو أو نوم ... يُسمَع وقع خطوات أولى، وثانية، ثم ثالثة، ثم شيء يتدحرج قريباً أو بعيداً ... اصطفاق أبواب ... رنين تليفون لا ينقطع ... خوار أبقار من جهة غير بعيدة، ثم صوت احتكاك سلاسل على أرضية المكان، ومحرك دائب الدوران، ويُسمَع للظلام صوت أجش، ثم يُسمَع له دوي انفجار ليغيب كل صوت أخيراً ويبقى هناك شيء رهيب لا يُرى ولا يُسمَع، ولكن له رائحة، وهو موجود في مكان ما، أين؟!

– أين أخفيتم الشيء وذاك الشيء؟

– أين كانت اجتماعاتكم تتم؟

– أين اخبأتم ليلة ٢٧/٩٧/٩٩٩٧؟

– أين توجد قيادتكم ومُؤلوكم؟

– أين فُضّت بَكَارات أمهاتكم يا أولاد القحبة؟

– أين خبأتم الصناديق التي أرسلت لكم من البحر؟

– أين أخفيتم الأشعار التي وزَّعتم بسرية على التلاميذ في الثانويات؟!

اصطفاق أبواب، صفع، ركل، بصاق، رائحة جلد يشوى بأعقاب سجاثر، رفس فيما تبقى من اللحم، ويعود الأنين المتقطع، الليل والنهار بطولها، وكلما بدأ التدحرج تأكد أن هناك مدعواً آخر للتحقيق. كنت أستعجل أن يأتي دوري لا تخلص من تعذيب الانتظار الآكل، ولأقذف في وجههم بكل ما لا أعرف، وكان من خطتهم هذا التعذيب البطيء، والتفنُّن في الدعوة ثم التأجيل، ولكن حين تأزف الساعة، تبدأ الآلات عملها الجهنمي، وتُبَسِّط الأجساد مثل مواثد الشاوية، ويتوالى النهش والالتهام ليُعرَف من أين جاء هذا الشيء، من أين؟

– «من أين لك هذا الرأس، والغابة التي تكسوه؟ وأين أخفيت الأحلام التي كنت ترويها صباح مساء بمقهى «الخضراء» بمرس السلطان؟ ومرة امتطيت غيمة وسافرت على متنها إلى مكان نريد أن نعرفه، وبِمَ تهمس للحروف المعتلة وأسماء المدن والقرى المثبتة على الخارطة؟ لماذا تُكَلِّم أعمدة الإنارة، تنام على جنبك الأيسر، تتبول أربع مرات في اليوم الواحد، توقع بطريقة واضحة، تحب بتهوفن، شيخات واد زم وجورج أورويل؟ ولماذا تكتب الجمل المعقوفة، الغامضة، المكورة، تستعمل المجاز كثيراً، وتنتابك الأحلام المزعجة دوماً ... ثم إنك ... وهو ... وهم ... كلكم تريدون ... ونحن» استمر يلفظ ولا أدري كم عدّد من تُهَمِّي وخطاياي ... والذي أدريه حقاً، هو أن كلمة واحدة كانت لا تنقطع على لساني، كنت لا أتوقف عن ترديد:

– «إنني لا أتذكر شيئاً ... لا أتذكر ... لا أتذكر»، وكلما استمررت في عبارتي ازدادوا

هم إتقاناً للشد والجذب ... إن لهم في ذلك أفانين، لم أكن أعرف مصدر الضرب، أقف

أو أتوقف لأهوي للتو ثم أُسْتَوْقَف وأظل أهوي ... الخيوط والمغاريز كانت أكثر الأدوات رعباً وإيلاماً، تشتعل الأضواء، وتلتهم البروق في رأسي وفوق عيني المعصوبتين ... يزداد الظلام دُجْنَةً، ترتعش أطرافى وتهذي ذاكرتي فتتسابق الألوان، وتركض الخيالات والأشباح، وأختلق لهم كل الصور التي مرّت أمام ناظري ذات يوم أو غيرها مما سمعت أو تخيلت عن الحيوانات المنقرضة. أترجع متدحرجاً إلى الخلف، لا يكون أي عضو في قد ظل ثابتاً في موضعه، وقّع ... إنني لا أفهم شيئاً ... وقّع أيها الكلب، اتفوا! ماذا؟ هنا بالضبط ... خير لك أن تفعل، بأصابع اليدين أم القدمين؟! أي شيء ... يكون جسدي قد انفصل عني وتوزّع إلى انشطارات ... الانشطارات بدورها تتوالد وتتحوّل إلى خلايا نمل وقمل وذئاب تعوي، وطنين لا ينقطع ... إنني لا أتذكر شيئاً، كان ذلك الزمن مختالاً ... كنا نلتقي مبتهجين، نتحاضن مبتهجين، وننشر بهجة مطلقة، نعرف أن الطريق التي سلكنا وعرة، ولكننا لا نأبه لحساب الاحتمالات ... أظل متدحرجاً، وإلى عمق بلا قرار أكون قد هويت ... وفي أحشائي يكون العمق أشد انغرازاً ... لا أعرف هل هو جوع أم فزع أم انفصال كلي عما هو حولي، وما اتصل بين ماضيّ وحاضري، بيد أن الشيء المؤكد عندي هو أنهم جاءوا وفسقوا في المضاجع والحقول ... حصدوا الزرع، واقتلعوا العيون ... اشتعل الحصى ليلتئذٍ، وكانت القمم متصاعقةً، يهوي الشيء على بعضه، وفي الدوامة تنطلق الحركة الموقوفة، الجموح المنكفي صُعداً نحو أنفاس تلهث بوجيب الأنهار، وورد ما يلبث أن يتفتح لتنتفخ له بطن تُبْقِر، يخرج منها نسل جراد، فيلة، كوارث طبيعية غير معلومة، قوافل عبيد مهترئين في الانتظار، فتيات ينشرن جدائلهن حبلاً لتلتفّ بأعناقهن وهن يُعلِنُ انتحاراً جماعياً، مخلفاتٍ وراءهنّ أوطاناً ورجالاً وبكارات مدعومة ... جاء الموت جسماً كسحابة رمادية، كتلة في الامتداد وبلا انتهاء، ولكنه حل «فتى غض الإهاب»، طوّق المداخل والمخارج، استوقف العابرين وراقب الصحف والكلمات المتقاطعة وقوانين الوجود ... وظلوا هم جلوساً في استرخائهم المعهود، الكراسي تتداول العابرين، يفتحون أعينهم وأسماعهم ببلاهة على عناوين الصحف ونشرات الأخبار والفراغ المبهم.

في ظهيرة ذلك اليوم من الأيام المجهولة، انتبه إليه وهو يحدق، بعينين جاحظتين ومنطفئتين، في آن واحد، إلى ذراعه. كانت الذراع طويلة ونحيلة، ثم مدبقة عليها آثار من احتراق نار ... يديم النظر إليها ويتخيّلها موجودة وحدها دون أي شيء آخر، بدأ يزحف جهتي بقدمين شبه مقرفصتين. وكانت ذراعي وحدها مدلاة كأنها ليست مني، تتحرك وتتنمل في فراغ سحيق. ومن النظرة الجاحظة والمتوفزة إلى حركة انقضااض جعلت هذا

الشيء المتدلي مني يفلت من بين فكّيه بصعوبة. وقبل أن أفكر في دفعه عني، كان قد أخذ يجهش ببكاء حاد، أسندته إليّ وأسندت رأسي إلى الحائط البارد، ورحت في سهوم بعيد، وقد اشتعل خيالي بقطع الخبز، فجاءتني العمارات والهضاب والكراسي والسيارات والهاواث والشرطة والدرك الوطني وآلات الفليبور والكيس الذي لفوني فيه في اليوم الأول خبزاً في خبز في خبز خبز خبز خبز حتى البحر الذي أغلقت عليه عيني، وكان آخر ما رأيته ... أردت أن أقول له وقد كفّ تماماً عن البكاء وجلّلتني دمعته فصحوت: عبد الله، هل تسمعني؟ إنني اشتقت، آه إنني اشتقت إلى البحر ... إننا أبناء البحر، وسنذهب جميعاً ونغوص في قعره ... انظر إلى هذه الزُرقة المتألقة، والموج الموح يا عبد الله، إنه البحر!

حين خرجنا من الأقبية، كان الجميع قد نسينا ما عدا البحر؛ فقد ظل يذكرنا، وشحبت زرقته، ووجدناهم حيث تركناهم، استطالت لحاهم قليلاً أو انحنت ظهورهم بعض الشيء، وكانت عيونهم دائماً منطفئة.

قلت لعبد الله: هل تأسف على شيء؟ قال: أبداً، ولكن انظر إلى هؤلاء، إنهم جامدون كالصخر، وكأن المئات منا لم تتأكل، لم تجع وتعرى وتقتل ... يهتممون قليلاً حين يرتفع سعر السكر والزيت والبيرة ليعودوا إلى سالف عهدهم. ولكن؟ تعني؟ بالطبع. لا بد أن نأخذ الدار البيضاء، وبالبحر نبداً. حين شارفناه شممنا رائحة دم مطلول على جبهة الأفق ... شققنا الصدر وهتفنا بجسده المجنح أمامنا سلاماً.

ليتداعى إليّ زمك، وليكسر ما حجز به من أقفال وتمائم ... ليأت الطلسم الضد فيخرق وقتاً بوقت، ووجهاً بوجه، وتترنح في فضاء العين والذاكرة قيامات محتدة الحس والوله ... لا بد تخرجين من صمتك ليكون ميقاتك المعلوم آية نشخذ بها ما صدئ، ونلتف بها راقصين حول الشعلة المقدسة، مشتعلين بها، تفتحت فينا أزاهيرها، قمطتها الذكرى ووارى رمادها إلى حين ليل كارثي متراجع، ولكن هي هنا لا تديم ... تسطح بين الماء وبين النار ... بين وجهك السهول وصدري الهضاب والغابات. وحين تزور منا أو تزور عنا نلث خلفها راكضين لينتفض حولنا الرماد، ويلقي علينا ببقايا خيوط اللهب، هل ليستعر فينا الوله؟ لقد كنا دائماً ننحني أمام الرموز المستميتة، نواصل بها اليقظة وتواصل فينا الارتجاج. ولتقاطع النظرة وتداخل الجسد أبجدية تتلى فتتهض منها صلوات الخرق وأسوار التكوين، ويجري النهر فوق النهر اغتسالات فتستطيع الكواكب التي اكتشفت والتي استشرفت أن تتواقى على مدى العين، وأن يتوافد إليّ البياض إذ جلت الخطوات فكان قرعاً فوق الموج، وندباً بين تصالب الكفين؛ إذ التقيا اشتملا وتشاملا ... ساطعة هي

كلمات الوعد الأولى، مستعرة بخصوبة التراب الناهد بين الشاوية وباب أبي الفتوح، وكنا قد جعلنا باب الخوخة تذكراً لعصف وقيامه سيتلململ وشم همد، وصمتُ تكلم، ووقت ما عبر، وسنتبادل — مثملاً فعلنا دائماً — نجومًا سبكناهما بين خصور الجبال وانسكاب شعير تعلّقنا به طويلاً، وأطلقناه أطفالاً، فرحاً عارياً في الشوارع. تلك الألوان المختالة في ربيع سهول مكناس وبني ملال. وعلى امتداد الطرقات يُسمع لمروك إيقاع الطعريجة والبندير ليزهو الغمام من بياض الانتشار، فكأنني بالعين مديّة تحز العنق تلو العنق، تتساقط رءوسنا فنندفع بما تبقى من حرارة الاحتضار، ونقدم إليك الوجه والوجه والوجه محمولاً فوق أرضٍ أمطرت فيها ظلّاً لك، ونقول: كل شيء لك لك أنت لك.

الطرق، والطرق الحاد لتفتّح الأبواب، نكون من العابرين في تلك الليالي الطويلة في العزلة الموحشة ... وجهك يملأ المتر المربع، وتبرق الملامح على القضبان ... هنا عين، هنا شفة، سرب شعرك على الجدار الكامد بحبوبة ضوء ... يُسمع لك مع المساء وجيب يصد الليل يطغى على الطرق والأثني. حين تخفت الأصوات وينتهون هم من تمارين الضرب والنهش ... يتسلّل الوجيب، ونرخي كلّنا أسمعنا، معزولين كنا أم مُكدّسين على بعضنا ... هو النشيد لا محالة، ونبدأ الدندنة، وبأطراف أصابعنا المتورمة نوقع ... هو غناء محبب إلينا، يكهرب الجسد الذي يفنى هنا، ونشتعل قناديل ... يعلو الطرق وتتناغم الدندنة. اصمتوا يا أولاد القحبة، نكون مأخوذين وأنفاسنا مأخوذة بغواياتك أيتها الدهشة. يستفزه الغناء ... هذا بعض سلاحنا ... يهجمون بأصواتهم وعصيهم وشتائمهم ... لم يعد الصوت لنا ... لقد سكن. الجدران والبلاط والهواء الفاسد حولنا ... شفافها مطبقة والصوت مدوّ ... وجيبك عند المساء وكل مساء في عزلتي الموحشة أعلنك سيدة الجغرافية، وتكون كل دورات الأرض قبلك غير مكتملة ... صمتنا والوجيب ممتد لا يطالونه، يرمون الشباك والقيود والحبال والأكف كي يصطادوه ليظل منفلاً ... إنه لي، هو حي لا يموت، لا يرى وأراه ... أمد يدي لأقبض على الدهشة ... تلتوي اليد بالقضبان ... أسترجع الحس وتداهمني اليقظة المرعبة انطلق بيننا صوت وإشارة. لم تكن الطوابق الأخرى ملتفتة ولكنني أنا كنت تمرّين وأنا أحمل سنوات العمر العشرين. انطلق بيننا صوت وإشارة ... لم تكن الطوابق الأخرى ملتفتة، ولكنني أنا كنت مشدوداً إلى القامة من طابقي ... ولحظتها أيقنت أن زمناً آخر سيتولّد من هذا الوقت المارق، الذي سيضيعني ... وأيقنت لحظتها كذلك أن لا بد من بدء العد من جديد، وأن الحلم يمكن أن يصبح مملكة تسود وتغشى عندها الأبصار، فتداعيت لها وعندها، وشمّلني الغمر، وقُلْتُ طقوس الغناء معك ابتدأت، وإن نشوة صعلكتي تزداد الآن، لا بل هي تزهو بين رفاقي الصعاليك، وتعلن قرارها بمزاوجة اللقاء والافتراق.

كيف يلتقي الشيء بضده، ويذهب الواحد وعكس تيار الآخر وهو يعلم سلفاً أنه ي طال محالاً؛ إن يريد تعديل وتيرة الأشياء وفق تقديره هو ... كان يملك الإخلاص، ويحمل صدقه في عينيه، ولم يكن عنده غير هذا سوى طاقة اندفاعه يواجه بها بشرية لا تكف عن التشيؤ وارتياذ مسافات وهم أجوف.

غير أنها هي كانت المطلب والمحال معاً، وطوق الاستحالة كان يشحذ النفس لمزيد من الوصل والانفصال، ويترك جسده يرتج في النفس والحركة، ويتلوى بين الحنين والعصيان، بينه وبين العالم من حولها وكتل التراكمات حول عينيه ولحيته والرصيف الذي ينقل جدته صباح مساء.

وهل يمكن لهذا الشيء الصاعق؛ إذ يخطف الرعشة ويبرق باهراً كالشعاع ليطير بعيداً، أن يُعوّض الاحتياج إلى مزيد من البطولة. إنك هنا، وإنك في كل مكان، وإن الوقت ليضيء بخفق منك. ها أنا ذا أتبعك في الحافلة ... والشعر إذ يغني، وهم يسد عليّ كل اتجاه، وأنت تطارديني في الحلم، وصعلكة الفتوة الجامحة، وبين أن أخذ إليّ مَحَن الطين، وأن ألتفّ على شهقات الأقيية، وأكون مؤشراً لكتابة الصدم والفتن المؤجلة، أو أكون لك بما يجعلني أتناسخ في ظلك ... أتنفّس في هوائك، وأنطوي أرضاً أمامك ... ها أنا ذا أتبعك ولا أعرف كيف أمشي إلا ببارق من وجهك ... سيدتي، إني حملت سنوات عمر غضّ، قلت نفترش بها طريقاً سوياً ... تجيئين وأجيء، يتخاصر النهران، ويظل تشابك الفروع قلقاً بيننا؛ إذ كيف يستوعب الكل الواحد ... تتلاشى من مساحة امتدادنا الرؤى الحارقة، ثم قلت إننا لا بد لكي نتأجج من أن نحترق، فسعيتُ إليك بالليل وتداغل الأحلام ومهرجان الشوق إلى بلدان مدلهة، عسى أن يجيء العصف العظيم. ولعينيك هبوب ... تلك اختلاجات العبور على محطات السنين وعمر تتناوب على ساعاته دقات الشرخ: الموت الأول صحو، الموت الثاني صحو آخر، الموت المتدافع هو أن صحوئاً على بعضنا في غربة وجهين يتكاشفان، وجحيم الرغبة في الرغبة في الاكتشاف ... هذا بوحك الخيلائي ... الأرض التي تمتد لتنعرج في طبقاتها وتنقض على دوارها فيخرج لها من بين الثنايا سفير تتلظى به فتدك منعرجات الداخل، ومن شظايا الأعضاء تتقاطع المتاريس ... يستهويني جسدك يا امرأة الخصب، ويا امرأة الحشد، فيبتل بنا مطر الجسد، لتتصاعق الرغبة في الرغبة في فحيح يتشكّل لوثة لا شفاء منها ... ولقد سرنا وعرفت لظى المسير ... كنا نتساند حيناً، ونتباعد حيناً آخر، ولكننا كنا دوماً مستنفرين لجموح أكل، نواصل فيه البحث عن دَوَامات نقات من لهاثنا فيها، ونحفر النفق إثر النفق لنعتاش على أمل الركض في كل الطرق المدلجة ... وها

ريحك تهب عليّ من البلد الصقع الرطب ... النار خافرة مرةً ومجتاحة حين يبدأ انحباس الحنين عن الجذور ... يشتد عصفك وإن يكون عليّ أن أبعد في الموج المغرقني أدفع بكل ضآلاتي وكوارثي، وأستمد من طين ما رسب من فجائعي معك صارية وشراعًا أخوض إليك هذا البلد الجنون ... وأظل ملتأماً بين بشريتي المهتاجة في دمك ونفثات الجرح الندي يقطر يقطر دمًا يتكهرب على محيط دائرة الوصل والانفصال، فأستعيد من انقطاعي عنك وصلي إليك، نتجاذب، نتطاعن، نتلاهب، نتخارج ونتداخل أبدًا في الجذر التكعيبي لجغرافية الفحيح ... وإن لا ينطفي وميضك، يستعر وهجي، وأحتاج كيف يغتال العمر عمره، واليوم زمنه، وكيف تُسبى كل الأعراس الجميلة وتلوى أعناق الورد ... ومن جرحنا المفتوح؛ إذ تفاقمت فيه منارات الطلق ... قلت سأمد لك، هذه المرة يدًا، أشرئب بجذع شجرة، أتكلم الشجرة شاخت الطرقات أم شاخ كلام الشجر ... في أوريكة، كان النهر بيننا شاهدًا ومعصية، تذررت به وقلت هو القطران والأقحوان، وعبرني مباليًا بقليل من الحصى تحت القدمين ... استجمعت الصهد، ودفعته من أوريكة باتجاه «درب السلطان» ... قبل أن يصل إلى مبتغاه لف قليلًا، وأفعاونيًا تلوى لينعقد كالصرع على جسد الشهادة، في مدخل مقبرة الشهداء، كنا نسُميها «اغبيلة»، فبغتنا بالوجوه، وبغتنا بأنفسنا اغبيلة بالقبور مفتوحة، والشواهد محلقة، بالوقت المغربي، لا بالساكن ولا بالمتحرك:

– ولكنني أشم الرائحة، ويستغرقني طيف عمر.
– ولكن أشم الرائحة، وأنطوي في أحضانه هو.
– ولكن سيدي جلول ولدخيرة لا يخلف وعده، لا بد يجيء.
– ولكنها هي، وردة الوقت المغربي، السّانحة، المستعصية.
تضوع بالعطر وبالحَبَل.
فلأي شيء سيفترّ الوجه بعد الآن، ولأي شيء ستفتّر الجبهات.
قبل أن نفترق في المنعطفات، التقى وجهانا، وكانا معًا شاحِبَيْن، ولكن بلون مختلف، فبادرته:

– هل انهزمنا حقًا، أم أنه بدء المسير؟
لم يَحَر جوابًا في البداية، وتلك عادته، لكنه ما لبث أن غاص قليلًا في نفسه ليستخرج جوابًا، وقال: وكيف نهزم هكذا؟! ... إذن، فقد انتصروا علينا!
وتبعها بضحكة أعلم سلفًا أنها ستكون محشرة كما لو كان يقطعها من جلده:
– ثم كيف؟

- قلت له: لا بد أن أفعل.
- ماذا؟
- لا بد أن أرحل.
- هل هزمك الأقسام؟
- أبداً، ولكن زمني ينتظرني.
- وهذه الأرض التي جننت بها وفيها ... ماذا تُراك فاعل بها؟
- لا بد لها أن ترحل معي، لقد استشرتها في ذلك، وهي تتكلم معي، وستعرف البقية.
- إذن، هزمت.
- إذن أرحل.
- وعاد الشحوب الذي تبدد مؤقتاً، وانفسح الوقت المؤقت لحوار صامت ألفناه، ولم أجبه عن السؤال الذي ظل راکداً في جوفه:
- «لن ستركنا نهزم في هذه الغابة التي امتلأت بالوحوش والأقسام، وقد بدأنا الطريق سوية»؟
- كنت أريد أن أحدثه بالكثير الذي أعلم، والذي أستطيع، وكنت أريد، لكن النجم المؤتلق ناداني ... وهي في التطواف المزمّن، وأنا أريد أن أعود مع الطوفان الآتي، وكيف؟ ثم كيف يعود لنا المغرب، كيف؟

